أحمد بهجت

بعض من عرفت



بعض من عرفت

اهداءات ١٩٩٨

مؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع

القاهرة

أسم الكتاب : بعض من عرفت

إسم المؤلف : أحمد بهجت

الغلاف : عمرو فهمى

خطوط : خضير البورسعيدى

الناشر : **دار الهدى للنشر والتوزيع**

تليفون : ٣٤٧٧٨٣٢_٢١٨٢٥٨٥

حقوق الطبع : محفوظة للناشر

الطبعة الأولى : ١٤١٦ هـ _ ١٩٩٦م

رقم الإيداع : ٩٥/١٠١٥٩

الترقيم الدولى : 977 - 5340 - 12 - 8

طباعة : **عربية للطباعة والنشر**

٧_ ١٠ شارع السلام أرض اللواء

تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ _ ٣٠٣٦٠٩٨

أحمد بهجت

بعض من عرفت



إهداء

إلى «رميا»

القطة التى تعلمت الخربشه قبل أن تتعلم النونوة.

احمد بهجت

المقدمة

كان لأستاذنا الكبير محمد التابعى كتاب بعنوان «بعض من عرفت» وكان الكتاب يتحدث عن مغامراته فى أوروبا .. ويحكى قصصه مع بعض نساء عرفنه هناك، وإرتبطن معه بقصص حب طائر وسريع كان ينتهى بشئ يقع بين المأساة والملهاة .. شئ لا تعرف هل تحمد الله عليه، لأنه وقع، أم تحمد الله عليه لأنه لم يتم .. وقد أثر الكتاب فى نفسى تأثيراً شديداً فى فترة الشباب.. كان الكتاب يرسم للتابعى صورة تقع بين الدون جوان وروميو .. صورة الفارس العاشق ..

وكان التابعى إنسانا أرستقراطيا فى ذاته، كان ينزل فى فنادق الدرجة الأولى، ويحجز له جناحا فيها، وكان معروفا بكرمه وتبذيره وعدم إحترامه للنقود .. وهذه صفة أشترك معه فيها، لكننى لا أشترك معه فى صفات الجسارة التى كانت

تدفعه للنزول فى أجنحة الفنادق . . إننى حتى اليوم أخشى أن أدخل فندقا لشرب فنجان من القهوة إلا إذا كان جيبى يضم خمسين جنيها على الأقل، وأحيانا أدخل الفندق لأحتساء فنجان من القهوة، وتثور المخاوف داخلى لأن فنجان القهوة قد يتكلف أكثر مما فى جيبى . .

كان التابعى بالنسبة لنا نحن الشباب يمثل لونا من البشر الذى يشبه الأسطورة . . ومرت الأيام، وتقدمت فى السن، وراودتنى رغبة فى أن أكتب كتابا بهذا العنوان القديم.

بعض من عرفت . .

وحتى نكون على نور . . دعونى أشترط فى البداية شرطا، وما أوله شرط أخره نور . . أحب أن أنبه القارئ إلى إنه لن يجد كتابى صورة من كتاب التابعى، فعلى حين ينتمى التابعى للأرستقراطية الفكرية، ننتمى نحن للأرستقراطية الشعبية . .

وعلى حين عاش التابعى مثل ملك من الملوك، عشنا نحن مثل كتابة على الماء أحيانا وعلى الحجر أحيانا أخرى . . وهناك أذن فرق هائل . . لا يعنى هذا ان كتابنا سيخلو من قصص الحب . . والوجوه الجميلة . . أبدا . . سنجد قصص حب كثيرة، ولكنها قصص ليست بالضرورة من لون حب قيس لليلى أو روميو لجولييت . .

إن النساء مخلوقات تستحق الحب، لا ننكر ذلك ولا ننفيه.. كل ما نريد التأكيد عليه .. هو القول بأن النساء لسن وحدهن من يستحق الحب فى هذا الكون ..

هناك آلاف الخلائق التى تستحق الحب، كالبشر والأشجار والطيور والقطط والكلاب والأماكن والشخصيات .. وهناك شخصيات ترسخ فى وعى الإنسان وتظل حية داخله لفترة طويلة.. وقد يكون فى هذه الشخصيات ما يبعث على الضحك المبلل بالدموع، أو ما يبعث على الضحك الصافى المجلجل .. أو ما يبعث على مجرد أبتسامة سريعة..

لا نريد أن نطيل على قرائنا من الشباب أو الشيوخ.. فلندخل فى الموضوع مباشرة..

وللعلم - وهذا هو التنبيه الثانى للقارئ - لن نلتزم بترتيب زمنى معين.. يعنى.. لن نبدأ بالطفولة فالصبا فالشباب فالرجولة فالشيخوخة..

سنبدأ من أى موقف زمنى .. ونقفز بين الوجوه وسنوات العمر مثل صقر يطير وسط أشجار غابة ظليلة ..

○ ○ ○

الزعيـــم

المكان : مدرسة التوفيقية الثانوية

الزمان : ١٩٥٠م.

الموقف : مصر كلها تغلى بأفكار الوطنية والأضرابات فى المدارس مستمرة، وفى كل مدرسة زعيم يلهب الطلبة بخطبة نارية، وفى كل مدرسة مجموعة من الحشاكيل حول الزعيم..

ملحوظة : الحشاكيل فى لغة المصريين هى البطانة التى تلتف حول الزعيم وتقوم بتحريك الطلبة وتقوم بوظيفة الهتاف المنغوم الراقص الذى يردده التلاميذ بعدهم بسرور وحماس..

كان زعيم المدرسة طالبا فى التوجيهية، وهى السنة الخامسة الثانوية، وكان مظهره يوحى بأنه أستاذ فى المدرسة لا تلميذ. كان طويلا عريضا جاد الوجه صارم الملامح، وكان مرتفع الصوت يستطيع أن يجمع المدرسة كلها لو زعق زعقتين

هـائلتين.. وكـان قـد أمضى فى السنة الخامسة عدة سنوات..

وإلى جوار مواهبه فى الخطابة كان بطئ الفهم قليل الإدراك متواضع المواهب العقلية.. لكن مقومات الزعامة الطلابية كانت لا تنقصه. كان إذا خطب .. أشعل الحماس فى قلوب الطلبة، حتى يتحولون بين يديه إلى عجينة طرية يستطيع تشكيلها كما يشاء.. يكفى أن يقف وسط المدرسة ويهتف ـ أيها الشباب.. أيها الزملاء..

تكفى هاتان العبارتان ليلتف حوله الطلبة.. عندئذ يحدثهم عن الأمر الجلل الذى دفعه لأستدعائهم فيقول لهم مثلا: اليوم.. ذكرى الشهداء.. اليوم تحتفل مصر بذكرى الشهداء. لا يحدث الطلبة أى شهداء يقصد:. لا أحد من الطلبة يسأله: أى شهداء يقصد.. إن كلمته مصدقة كالجنيه الذهب.. لا أحد يشك فيه ولا أحد يراجعه.. بعد ان يجمع الطلبة حوله تبدأ البطانة فى الهتافات.. ويتحرك الموج الهاتف نحو غرفة الناظر حيث يجاملونه بهتاف أو هتافين بحياته.

ويسأل الناظر بعد أن يقطب وجهه وتكفهر ملامحه ـ عاوزين أيه.. ويرد الطلبة ـ عاوزين العلم.. ويشير الناظر ـ إذا إقتنع ـ إلى فراش فى المدرسة فيمضى الفراش إلى غرفة العلم ويعود بالعلم.. وتتولى البطانة مهمة الإمساك بالعلم

ورفعه وتهدر المظاهرة وهى خارجة من المدرسة إلى الشارع..
كنا طلبة صغاراً فى السن، وكان زعيم المدرسة موضع ثقة هائلة من طلبة المدرسة جميعا..

كان «رمزى» وهذا إسمه يفيض بالثقة كما يفيض المصباح بالضياء ولم يكن أى واحد فينا نحن الطلبة الصغار يشك فيه أدنى شك، أو يشك فى زعامته أقل شك.. كان يبدو لنا صادقا طوال الوقت.. وكنا إذا خرجت المظاهرة ظللنا نسير وراءه ونحن نهتف فى الشوارع، ثم فجأة.. كان يختفى.. وكانت بطانته هى الأخرى تختفى معه إختفاء غامضا يصعب تفسيره، وكنا فى كل مرة نلتمس له عذرا فنقول لعله مازال موجودا وربما كان الزحام الشديد يخفيه..

ثم يصل رجال الشرطة، وتتفرق المظاهرة من نفسها فى هدوء، وكفى الله المتظاهرين شر القتال مع الشرطة، والحق أن رجال الشرطة فى هذه الأيام كانوا يتجنبون الإحتكاك بالطلبة، إنما كانوا يسيرون بمحاذاتنا حتى تتفرق المظاهرة فى سلام..

ومرت عدة أيام بغير مظاهرات.. كان هذا أمرا يثير الضيق، فلم تكن هناك أحداث تثير الإحتجاج أو التظاهر.. وركد الجو بالتالى. وذات يوم.. أتيح لى أن أعرف سر الزعيم الذى كان فوق مستوى الشبهات مثل زوجة قيصر..

ذهبت إلى المدرسة مبكرا وتوجهت إلى الفصل بدلا من التوجه مباشرة إلى الحوش لإنتظار طابور الصباح.

فى طريقى إلى فصول السنة الثالثة الثانوية، مررت بفصول السنة الخامسة الثانوية.. كان أحد الفصول مغلقا وشبابيكه مواربة، وثمة دخان سجاير يخرج منها. توقفت قليلا ثم شببت بأقدامى لأنظر من الذى يدخن فى فصل الكبار، كانت المفاجأة شديدة. إن زعيم المدرسة يجلس وسط حشاكيله وهو يدخن، وأمامهم جريدة يقلبون صفحاتها. مضى زعيم المدرسة يقلب فى الجريدة ثم قال فجأة.

- فيه فيلم مدهش فى سينما مترو..

تصاعد اللغط من البطانة وهم يستفسرون عن الفيلم، وحدثهم عنه الزعيم ثم قال.

- للأسف الفيلم حيتغير بكره.

قالوا له: والعمل؟

قال وهو يفكر: مافيش حل غير إن إحنا نعمل مظاهرة النهاردة ونزوغ نروح نشوف الفيلم.. قال واحد من بطانته.
- نعمل مظاهرة بمناسبة أيه..؟ فكر الزعيم قليلا ثم أمسك جريدة الأهرام ومضى يمر بعينيه على عناوين الصفحة الأولى ثم ألقى الجريدة من يده وقال:

ـ معاك حق. . مافيش أخبار. . الجو راكد .

عاد الزعيم يتصفح صفحات الجريدة فلم يجد فيها شيئا كما يبدو لأنه ألقى بها من يده وقال:

ـ أيه الملل ده. . إحنا ضروى نشوف الفيلم ده النهاردة.

قال واحد من البطانة. ـ ماتشوف صفحة الوفيات.

برقت عين الزعيم وقال ـ أنت عبقرى . . نشوف صفحة الوفيات، نظر فى الصفحة ومضى يقرأ أسماء الموتى بصوت مسموع ثم توقف عند إسم منها وأعاد قراءته «فضيلة الشيخ سيد عبد ربه». . عالم الأزهر الشريف الذى وافته المنية وهو فى الثمانين من عمره قريب ونسيب عائلات. . توقف عن القراءة وقال

ـ هو ده اللى حيودينا السينما النهاردة. .

سألته البطانة: كيف

قال الزعيم: حتعرفوا بعد ساعة. . أطفأوا السجاير وتهيأوا للأنصراف فأسرعت أجرى نحو الفصل وأنا أضرب أخماسا فى أسداس ولا أفهم ماذا سيحدث بعد نصف الساعة. بعد طابور الصباح. . وقف زعيم المدرسة وزعق

ـ أيها الشباب. . أيها الطلبة الأحرار. . لقد دق ناقوس الخطر. وتجمع الطلبة حوله وأنفسهم تجيش بالفرح، إن هذه

النداءات تعنى أن هناك مظاهرة فى الطريق.. ولكن كيف وجو الأخبار راكد؟

أنصت الطلبة وقال الزعيم وهو يخرج منديلا من جيبه

- يحزننى أن أحمل إليكم نبأ موت مجاهد عظيم.. وثائر مصرى.. وعالم وقف ضد الإستعمار والظلم.. وضع الزعيم المنديل على عينيه وأنخرط فى البكاء ..

ووجم الطلبة وثارت فى مشاعرهم أحاسيس غامضة مبهمة بعد أن هيأ الزعيم طلبة المدرسة بهذه الحركة المسرحية البارعة، رفع المنديل من فوق عينيه وقال:

- مات الشيخ عبد ربه.. مات زعيم الشباب.. مات الثائر المصلح.. مات الرجل الذى كان يقذف بالحقيقة فى وجوه أعداء الحقيقة.. ثم رفع صوته بالهتاف قائلا: فى ذمة الله يا عبد ربه.. فى ذمة الله يا شهيد الحقيقة.. هدرت الجموع بالهتاف للشيخ عبد ربه ومضى رمزى يتحدث عن مناقب الفقيد ومآثره، حتى أبكى الطلبة وآثار حماسهم.. وخرجت المظاهرة من طابور الصباح إلى غرفة الناظر.

وقف الناظر وقال:

- عاملين مظاهرة ليه ؟

رد عليه رمزى: فى ذمة الله يا عبد ربه.. يعيش الناظر

الحر.. لانت أعصاب الناظر بعد الهتاف بحياته.. ولكنه تساءل مندهشا

ـ عبد ربه مين ؟

قال رمزى وهو يلوح بالجريدة فى يده ـ الشيخ سيد عبد ربه.. رجل الأزهر الشريف.. والعالم الجهبذ العظيم.. فى ذمة الله يا عبد ربه..

لم يستطيع الناظر أن يقاوم هدير الجماهير وسمح لهم بأخذ العلم، وهكذا إتجهت المظاهرة نحو باب المدرسة وخرجت من الباب وهى تهدر فى الطريق بهتافات تقول

ـ فى ذمة الله يا عبد ربه.

كنت قد حرصت على أن أسير وراء الزعيم خطوة بعد خطوة، محاذرا أن أتركه يفلت من نظرى.. إتجه الزعيم نحو الترام وركبه مع البطانة دون أن يحس جسد المظاهرة بإختفاء الزعيم ..

وفى العادة كان إختفاء الزعيم لا يظهر، لان زعماء أخرين صغارا كانوا يستمرون فى الهتاف دون أن يلحظوا إختفاءه.. ركبت الترام مع الزعيم وبطانته.. جاء الكمسارى وقال لهم: تذاكر وكان ردهم عليه هو الهتاف ـ فى ذمة الله يا عبد ربه.. لن ننساك يا شهيد الوطن وأدرك الكمسارى أنها مظاهرة.. وسألهم

- رايحين فين ؟

قالوا له: رايحين العتبة، ونزلوا فى العتبة وساروا إلى سينما مترو حيث أدركوا الفيلم قبل بدايته بقليل. جلست أشاهد الفيلم وأتأملهم.. كانوا يدخنون السجاير ويضحكون، وبصراحة.. كان الفيلم ممتعا ويستحق التزويغ..

بعد ما يقرب من ١٥ سنة من هذا الحادث.. كنت أغطى - صحفيا - إجتماعا من اجتماعات الإتحاد الإشتراكى حين شاهدت وجهه، كان رمزى بلحمه وشحمه يقف أمام المنصة وهو يخطب.. كان صوته يتلون وهو يخطب.. ويهدر أحيانا ويرق أحيانا أخرى وميزت من خطبته عبارات نارية مثل قوله.

- أيها الشعب العظيم.. نحن نقف أمام مفترق الطرق.. ولكن التاريخ ينظر إلينا وهو يمسك قلمه فى يده ويتهيأ للكتابة نعم.. نحن سنعيد كتابة التاريخ.. هذه المرة.. سنكتبه بدمائنا وعرقنا وإخلاصنا..

إنحنيت أخفى ضحكة تجلجل فى صدرى وسألت مرافقى

- من هذا الخطيب ؟

قال وهو يخفض صوته: هذا الوجه هو المرشح الجديد للوزارة.. كيف لا تعرفه.. قلت من بين أسنانى: كيف لا أعرفه.. لقد كان يتمرن من أيام كان طالبا.

قال: ماذا تقول

قلت له: لا شئ.. لا شئ...

۞ ۞ ۞

سانت تريز

شارع شبرا فى الخمسينات ..

بعد كنيسة سانت تريزا بمحطتين كان بيتنا يقف شامخا وسط مزارع تمتد حتى حدائق شبرا .. كانت إسمها «حدائق شبرا».. وكانت حدائق بحق وصدق.. إن آلاف الأفدنة كانت تزرع بشئ واحد .. الورود البلدية المعطرة .. وعندما يجئ الليل. أو ينتصف النهار، كان سكان حى شبرا يستنشقون هواء معطرا مر على الورود وحمل بعض عطرها وراح يوزعه على سكان الحى بعد ذلك.

كان المسرح مهيأ إذن لقصة حب. كنا نعيش فى شقة نستأجرها بجنيهين وربع، وكانت الشقة من خمس غرف كبيرة. . وكانت تطل على الجهات الأصلية الأربع، البحرى والقبلى والشرقى والغربى. . ومن خلال نافذة المطبخ كان المرء

يستطيع أن يرى لو إنحرف نحو اليمين قليلا حقول الورد الأحمر والأصفر وهى تمتد حتى تلتقى بالأفق. وكان شباك غرفتى يقع مقابل شباك غرفتها..

كنت فى الرابعة عشرة من عمرى تقريبا، وكانت أكبر منى بسنوات وكانت تلميذة فى مدرسة «البونباستير» وهى مدرسة تعلم اللغة الفرنسية كلغة أساسية. أما شقيقها فكان صديقاً حميماً لى.. أما هى فكانت فى البداية مجرد بنت الجيران.

ثم مر الوقت.. لم يكن فيها ما يميزها عن أى بنت أخرى فى الحى.. سوى شئ واحد.. هذا الوقار الجليل الذى يميز حركاتها وسكناتها.. كانت هادئة.. وديعة.. ورقيقة.. وكانت تحتفظ بوقارها فى جميع الأحوال. إنها وقورة وهى تمشى.. أو تقف.. أو تتكلم.. أو تصمت..

أسرنى جلال الملكات الذى كانت تتمتع به، ورفعت أقدامى قليلا وشببت عن الشرفة لأرى جزءا من غرفتها وهى تقف أمام المرأة وتقوم بتسريح شعرها.. كنت أقف فى خط مواز لها أو منحن قليلا عنها، وعندما أطلق كيوبيد سهمه ليصيب قلبينا معا، أصاب قلبى ولكن السهم طاش عن قلبها.

وهكذا قدر لى فى وقت مبكر أن أحمل وحدى عبء قصة حب كان ينبغى ـ طبقا لقوانين العدالة ـ أن توزع على قلبين، ولكننى حملت نصيبها ونصيبى وحدى..

هى قصة حب من جانب واحد.. لايهم..

المهم إنها موجودة.. وكائنة.. وتتنفس فى جو الحياة فيزيد جو الحياة عطرا.. كان يقينى يومئذ إن هذا العطر الذى يشيع فى شوارع شبرا يشيع لأنها تتنفس.. ولا يشيع بسبب حقول الورد الممتدة.. وطالت وقفتى فى الشرفة وأنا أركز بصرى وأصيخ سمعى على غرفتها.

لقد أطفأت الأنوار وأغلقت الشيش وإستسلمت للنوم وتركتنى واقفا فى الشرفة أحلم.. داخلى ماكان داخل الشاعر الذى ذكره التماع السيوف أثناء الحرب بثغر حبيبته..

ولقد ذكرتك والسيوف نواهل منى

وبيض الهند تقطر من دمى

فوددت تقبيل السيوف لأنها

لمعت كبارق ثغرك المتبسم

تغير شكل الحياة بعد أن وقعت فى الحب ..

صارت الطف.. وأكثر عذوبة.. كما صار لها معناها الداخلى. ظل بيتها فى مكانه.. كما ظل بيتى فى موضعه، وبقى الترام يسير على قضبانه كما كان، ولكن ظلا غامضاً ساحراً ألقى بنفسه على المكان فحوله من جمادات ساكنة بلا معنى إلى ذكريات حية.. كنت أتأمل شرفات بيتها كله، فإذا دق قلبى عند شرفة منه كانت هذه شرفتها ..

كنت واقعا فى حب الحب ذاته، قبل أن أكون واقعا فى غرامها..

لم أكن أريد منها شيئا، ولا كنت طامعا مثلا فى زواجها، ولا حتى جرؤت على مصارحتها بالحب.. كان الحب سراً أحمله داخلى وأحرص كل الحرص على إخفائه عن شقيقها، وكان صديقى..

كل ما كنت أريده منها أن تظل تشرق كالشمس كل صباح فى شرفتها، أن تظل موجودة فحسب.. أن تظل كائنة فقط.. وأن تمارس نشاطها قانعا منها بالرؤية من على البعد..

كانت تذهب إلى الكنيسة كل يوم أحد.. مع شقيقها.. قلت لشقيقها يوما: خذنى إلى الكنيسة يوم الأحد.

قال مندهشا: لماذا؟

قلت له: لاتفرج على الكنيسة.. لم أدخل كنيسة فى حياتى..

قال: ماذا لو إكتشفوا أنك مسلم..

قلت: كيف يكتشفون ذلك.. سأفعل مثلما تفعلون.. ولن يشك أحد فى حقيقتى..

تردد قليلا ثم صحبنى للمرة الأولى فى حياتى..

لم اكن اعرف من هى القديسه تريزا.. وما [illegible]
لعبته ولكننى أحببتها على المستوى الفنى البحت. كانت تماثيلها وصورها ببراءة وجهها وعذوبة ملامحه والشموع المضاءة تصنع جوا فى المكان كله.. جو أقرب لجو الأسطورة والسحر.. وحين ركع المصلون المسيحيون للصلاة ركعت كما ركعوا، وقرأت الفاتحة وسورة الإخلاص فى سرى.. وعدنا بعد ذلك إلى البيت..

كانت «س» تعاملنى كطفل.. وكنت بالنسبة لها طفلا ربما، فقد كانت تكبرنى بسنوات.. ولكن.. من الذى قال إن فارق السن مانع من الحب.. ومن الذى قال إن فارق الدين مانع من الحب..

لقد وقعت فى حب القديسة تريزا كما وقعت فى حب القديسة التى هى بنت الجيران.. وبوقوعى فى الحب.. صادفتنى المشكلة الأولى التى تصادف المحبين عادة.

كيف أعبر لها عن حبى؟

مجرد التعبير كان مشكلة.. أن أحدثها بفمى ولسانى مشكلة أكبر، أن فمى ينطبق على الصمت، ولسانى يخرس عن الكلام، واقدامى ترتعش فلا أعرف كيف أظل واقفا ولا أنهار جالسا!

كيف..؟

كيف أتجاوز كل هذه الأهوال وأعبر لها عن مشاعرى؟

حيرتنى هذه المشكلة فترة من الزمن .. ثم هدانى التفكير إلى الذهاب إلى مدرستها كل يوم ساعة الأنصراف، كانت مدرستها تنصرف بعد مدرستنا بساعة..

كنت أغسل وجهى وأخطف رجلى إلى أقرب مشتل من مشاتل الورود، وأخطف وردة بيضاء معطرة وأهرع إلى مدرستها حيث أنتظرها عند باب الخروج..

كانت تخرج دون أن ترانى.. وكنت أبدأ بالسير وراءها بخطوات وأنا أمسك الوردة فى يدى، ولا أجرؤ على تقديمها لها.

لاحظت ذات يوم وهى تمشى أننى أتعقبها فوقفت حتى أقتربت منها وسألتنى

ـ ما هذه الوردة الجميلة ؟

مددت يدى إليها بالوردة، فأخذتها وقربتها من أنفها وعادت تسير، وعدت أسير خلفها بخطوات.. مهمة تشبه مهمة الحراسة.. من يدرى.. قد يعاكسها أحد فى الطريق.. وقد تتعرض لبعض المضايقات.. يجب حراستها إذن بوصفها ثروة قومية.. هكذا هدانى تفكيرى.

وإستمرت الحراسة المشددة بغير حادث واحد يعكر صفو الأمن..

كل يوم كنت أتوجه إلى مدرستها ممسكا فى يدى الوردة، وتأخذ هى الوردة منى وتسير.. وأتبعها بعدة خطوات.. وأصبح معروفا وسط أصدقائى جميعا أننى قد فرضت حمايتى عليها، وإننى واقع فى غرامها..

بإستثناء واحد كان يجهل القصة، هو شقيقها.. ومرت الأيام، وظلت قصة الحب فى مكانها لم تتحرك خطوة واحدة.. وعلا وجهى وجوم حزين.. والتقط الإشارة صديق شقى من أصدقائى..

سألنى : مالك

تنهدت من قلب مكلوم..

عاد ويقول : أهى قصة الحب

أومأت برأسى موافقا فقال

ـ لابد من تغيير خطتك..

قلت له : كيف؟

قال أنت تحرسها كل يوم من خروجها إلى المدرسة حتى تعود إلى بيتها، وهذه مهمة يستطيع الكلب أن يؤديها.

قلت له: ماذا تعنى

قال: أنت فى حاجة لشئ مثير.. تلعب فيه دور الفارس المنقذ.. هذا هو الحل الوحيد.

قلت له : لم تقل شيئا حتى الآن.. أفصح عن نفسك..

قال صديقى الشقى: ماذا لو تعرض لها ثلاثة - من الشباب بالمعاكسة، تصور الموقف.. تصور إنهم يحيطون بها برذالتهم وكلماتهم المغازلة، تصور إنك تقدمت فجأة نحوهم وإشتبكت معهم فى عراك سريع، وتطايرت اللكلمات والضربات وجرى الشبان الثلاثة من أمامك.. عندئذ تتحول أنت إلى فارس منقذ..

ما رأيك؟

قلت له : إفرض ضربنى الثلاثة

قال وهو يضحك: أنت لم تفهمنى بعد.. لن تحدث معركة حقيقية، إنما سنقوم بتمثيل معركة.. سأتفق مع ثلاثة من أصدقائى الغجر على أن يتعرضوا لها بالمعاكسة ويسوقون عليها الرذالة، ثم تسرع أنت كالشجيع وتفض الموقف بقوة يدك..

إستمعت إلى إقتراحه وتأملته فوجدته وجيها كل الوجاهة..

قلت له: إقتراح وجيه.. ولكن من يضمن لنا أن يقع كما ذكرت

قال: أنا الضامن..

قلت له: كم يأخذ الاولاد الثلاثة مقابل ضربهم أوتمثيل ضربهم..

قال لى: سيأخذون خمسين قرشا.

قلت له: من أين أحضر لهم خمسين قرشا؟.

قال: سأحاول هز المبلغ قليلا.. وربما وافقوا على مبدأ التقسيط.. لا تشغل ذهنك فلكل عقدة حل، وأنا حلال العقد..

قلت له: متى ننفذ الخطة؟

قال: أحضر أنت ربع جنيه على الأقل،وسأنفذ لك الخطة بعد وقوع التمويل مباشرة.. هل تستطيع إحضار ربع جنيه غدا.

قلت له: سأحاول

قال: إتفقنا.

إنصرفت كالشجيع ومضيت أفكر فى العصابة التى وإنتقلت من هذه المرحلة للمرحلة الأهم والأخطر

ـ ماذا يكون شعورها عندما أتدخل لإنقاذها. . إنها ستحس على الفور بإننى فارسها المغوار. . ومنقذها الوحيد. . أخيراً ستعرف قيمتى. . أخيراً. . أخيراً. . تم تنفيذ الخطة كما إتفقنا بعد أن دبرت ريالا ووعدت بتدبير ريال آخر بعد إسبوع. . ولم تقع مفاجآت فيها. .

ونجح الأشقياء الثلاثة فى تمثيل دور المغازلين الأرذال، كما نجحوا فى تمثيل دور الجبناء، فلم أكد أنقض عليهم ضربا باليمين والشمال حتى لاذوا بالفرار. . ووقفت وحدى مع سندريلا التى تم إنقاذها. . ونظرت إلى سندريلا نظرة حارة تغنى عن كل حديث. .

عكست عيناها إحساسا بالفرحة. . والإمتنان. . والحب

وقالت لى:

ـ لم أكن أتصور إنك شجاع لهذه الدرجة. . وقلت لها شيئا معناه إننى على إستعداد لأن أحارب العالم كله دفاعا عنها. .

قالت ضاحكة: مرسيه خالص. .

وعدت إلى بيتى كما عاد الشجيع إلى كهفه بعد أن صرع العصابة واستراح منها. . المشكلة الوحيدة التى طرأت على الموقف إنها حدثت أهلها بما حدث. . كيف عاكسها الشبان، وكيف تدخلت كالأسد الهصور ودافعت عنها وانقذتها. .

وتساءل والدها: ما الذى كنت أفعله بجوار مدرستها. .

أيضا تساءلت أمها عن سر الوردة التى تعود بها كل يوم من المدرسة

وقالت هى: إننى أقطف لها الوردة كل يوم من الحقل، وأحرسها من المدرسة إلى البيت.

وإنكشفت قصة الحب لأهلها وعرفها شقيقها. . وجاءنى يستطلع جلية الخبر واعترفت له بإننى أحبها. . وإعتقدت إننا سنشتبك فى عراك. . ولكن رد فعله أذهلنى. . لقد ضحك طويلا حتى كاد يسقط على الأرض من فرط الضحك

قلت له : لماذا تضحك

قال: أضحك لأنها مخطوبة، وستتزوج فى نهاية هذا الشتاء. . ثم إنك طفل بالنسبة إليها. . إنها تعتبرك شقيقها الصغير. .

ترنحت فى مكانى من الصدمة. .

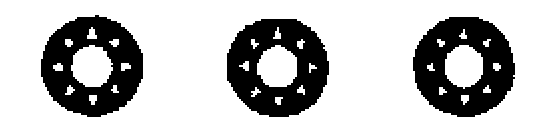
وتطايرت نفسى شعاعا حين إنقضى الشتاء وجاء الصيف وجاءت معه سيارة زينت بالشرائط الملونة ولعلعت الزغاريد وركبت سندريلا السيارة مع عريسها ومضيا لقضاء شهر العسل فى الأسكندرية. .

وبقيت وحدى مع الليل الثقيل الطويل وهو يجرجر عرباته السوداء المحطمة وينساب فى الفراغ.. ولأن المصائب لا تأتى فرادى، فقد جاءنى صديقى الشقى يريد الريال الباقى..

قلت له: أنا محطم قد ضعضعتنى الأيام.. وفقدت حبيبتى ثم تأتى أنت لتحدثنى عن الريال الباقى من الصفقة..

قال: لقد إتفقنا كالرجال على مسألة.. فلا تراوغ كالعيال فيها.

ودفعت الريال على أقساط طويلة، وكان كل قرش خنجرا يذكرنى بالحب الذى ضاع..



اللص الظريف أرسين لوبين

بدأ معظم أبناء جيلنا رحلته مع القراءة بقراءة كتب المغامرات وكتب الرواية البوليسية.. أما أكثر كتب المغامرات فكانت تدور حول الثورة الفرنسية.. وكانت تقف ـ فى معظم الأحيان ـ مع النبلاء ضد الشعب والثورة معا.. أما الرواية البوليسية فكان هناك ثلاثة من المشاهير فيها

(١) سنكلير لويس.. وهذا لم أقرأ له شيئا، ولم أعثر فى صباى على كتاب له..

(٢) شرلوك هولمز وصديقه الدكتور واطسون.

(٣) اللص الظريف أرسين لوبين..

أما سنكلير لويس فكان إختراعا فى أغلب الظن لمؤلف أمريكى، أما شرلوك هولمز فكان شخصية إخترعها السير أرثر كونان دويل البريطانى، أما اللص الظريف أرسين لوبين فهو شخصية أخترعها المؤلف الفرنسى موريس لبلان..

وكان شرلوك هولمز يعتمد فى كشفه للجرائم التى تقع على قوة ملاحظته وعمق معلوماته.. ولم يكن هناك ضرب وخبط ورقع فى رواياته، إنما كانت روايات ذهنية تعلم الإنسان كيف يتتبع الأثر ويتقصى خطواته حتى يصل إلى القاتل الغامض أو السارق المختفى أو الجانى المسئول عن الخطف مثلا..

وكان شرلوك هولمز يتعامل مع مساعده وتابعه مثلما يتعامل على جناح التبريزى مع تابعه «قفه».. إن شرلوك هولمز دائما يسأل د. واطسون.. أسئلة تبدو خالية من المعنى، أو بعيدة عن الموضوع، ولكنها فى حقيقتها هى الأسئلة الوحيدة التى تقود إلى المجرم الأصلى..

وأحببت شرلوك هولمز كما أحببت طريقته فى البحث الدؤوب عن الجانى حتى يصل إليه. كانت روايات شرلوك هولمز مبارزة بين عقلين.. عقل المجرم وعقل رجل الشرطة.. وكان النصر يعقدألويته فى النهاية لرجل الشرطة، لا لأنه رجل شرطة يقف القانون والمجتمع فى صفه، وإنما لأنه أكثر ذكاء وعلما ودأبا من منافسه..

أما أرسين لوبين فكان على عكس شرلوك هولمز.. كان لصا ظريفا كما قالوا..

والحق أننى فى شبابى المبكر لم أتوقف كثيرا عند لفظ الظرف الذى ألصق بأرسين لوبين.. كان أرسين لوبين ظريفا

خلال قيامه بالسطو على الخزائن، وكان ظريفا حين يلتقى بالمفتش تيل - رجل البوليس - وينخسه فى كرشه ويمازحه ويداعبه ثم يختفى كفص ملح ذاب فى كوب من الماء.. كان أرسين لوبين ظريفا لهذا كله. ولكنه كان ظريفا أيضا لأنه لم يكن لصا عاديا.. كان لصا يسرق من الأغنياء ويعطى الفقراء..

لم يكن يسرق حبا فى السرقة، ولا رغبة فى الثراء، ولا أملا فى الكسب، إنما كان يسرق ليحقق العدالة.

لقد سرق الأغنياء هؤلاء الفقراء من قبل..

ويجئ أرسين لوبين ليصحح هذا الوضع. فيعاود السرقة - من الأغنياء هذه المرة، ويرد إلى الفقراء ما سبق أن سُرق منهم..

كان أرسين لوبين مثل روبن هود فى إنجلترا.. إن روبن هود خارج على العدالة، إنه لص يقطع الطريق، ولكن هذا وحده لايكفى لخلوده أو دخوله التاريخ.. إنما أدخله التاريخ هذا العدل الإجتماعى الذى قام لتحقيقه، وهو عدل جعله أشبه ما يكون برجل من رجال الثورة والعدالة الإجتماعية.. وكذلك كان أرسين لوبين..

ولهذا أصبح اللص الظريف بطلا عند الشباب.. وهو بطل يشبع رغبة الشباب المثالية فى تحقيق العدالة.

إلى جوار هذه الفكرة الأساسية التى إنطلق منها أرسين لوبين، كان الرجل فى ذاته عبقرية خاصة خلال آدائه لدوره فى السرقات. .

كان العقد الماسى مثلا يقبع فى خزانة، وقد وقف فى الغرفة واحد من رجال البوليس، وخارج الغرفة يقف رجلان، وفى البيت نفسه ينتشر عشرات من رجال البوليس السرى الذين يتخفون فى ملابس مدنية. .

رغم هذا كله، نجح أرسين لوبين أن يتنكر فى زى نبيل روسى شهير، وانتحل شخصيته ودخل إلى الحفل، وهناك أثناء رقصة التانجو الهادئة، إنطفأ النور فجأة، وخلال إنطفائه إندلعت عدة صرخات نسائية.

قالت إمرأة: عقدى سرق.

وقالت أخرى : خاتمى الماس ضاع.

وقالت ثالثة : البروش الزمردى إختفى.

ووقعت ضجة وهرج ومرج، ثم أعيدت الأنوار إلى الحفل، وعندئذ إكتشفت أكثر من سيدة غنية أنها جردت من مجوهراتها، وأسرع المفتش تيل إلى غرفة النوم حيث يوجد العقد الماس للزوجة صاحبة الحفل. . وسأل رجل البوليس الذى يحرس العقد. .

ـ ماذا حدث؟

ويرد رجل البوليس إن النور إنطفأ ثوان أو دقائق . .

ويفتحون الخزينة فإذا العقد الماسى الذى يبلغ ثمنه ملايين الجنيهات قد إختفى تماما . . وبدلا منه توجد بطاقة عليها إسم «أرسين لوبين» .

نعم . . كان أرسين لوبين يترك بطاقته فى مسرح الجريمة . . حتى لا ينصرف الإتهام إلى غيره، ويدوخ البوليس بحثا عن واحد أخر . . كانت لديه الجرأة أن يعترف بالسرقة، وكانت لديه الشجاعة على تحدى رجال البوليس . .

بعد ذلك بشهور . . يباع العقد الماسى مع بقية المجوهرات المسروقة، ويصل ثمنها إلى ملاجئ الأيتام، أو مواضع الخير المختلفة . .

هكذا كان أرسين لوبين . . إنه يمتعنا بالسرقة من اللصوص، ويعيد المال المسروق إلى أصحابه الأصليين الذين سرق منهم . . وهكذا تحول اللص إلى بطل . .

وإلى جوار هذه الشهامة الإجتماعية التى كان يمارسها أرسين لوبين، كانت له ميزة أخرى . .

إن قاموسه لم يكن يعرف كلمة المستحيل . . ولعل قدراته الخارقة على إقتحام القصور والخزائن مسألة تلقى عليه ظلالا من السوبرمانية والتفوق الحاسم . .

لم يكن يقبض عليه أبدا، ولا كانوا يمسكونه متلبسا بالسرقة أبدا.. ظل مستعصيا على الشرطة وعلى القانون،وربما كان تطبيقه لروح القانون هو السر فى قوته الخارقة..

وكان أرسين لوبين فى قلب الأزمات يخرج لفافة من التبغ المصرى الهادئ ويدخنها.. ووسط دخانها يختفى عن أنظار جيش من رجال البوليس.. كيف؟ لا أحد يدرى، لم نكن نفهم ـ بسبب حداثة عمرنا ـ أن ما نقرأه هو لون من ألوان المبالغة التى تبلغ درجة التهجيص.

كنا نتصور أن أرسين لوبين مخلوق خارق.. ولعله يشبه اليوم الرجل البيونى الذى يطلقون عليه ألف طلقة من الرصاص ولكنه لا يعبأ بشئ ولا ينجرح فيه عضو.. ويقفز من الدور الأرضى فاذا هو يعتلى عمارة إرتفاعها عشرين دورا..

كان أرسين لوبين على أيامنا هو الرجل البيونى هذه الأيام.. وهو السوبرمان الذى يطير بغير جناحين.. وترسخت داخلى صورة لأرسين لوبين ـ من خلال قراءة رواياته التى كانت تترجم وتنشر يومئذ فى روايات الجيب.. كانت هذه الصورة أن أرسين لوبين ليس بشرا مثلنا..

هو نصف بشر ونصف جنى..

وظلت هذه هى الفكرة السائدة حتى جاء يوم وقرأت فى احدى رواياته أنه ذهب إلى طبيب الأسنان.. كان ذهاب أرسين لوبين إلى طبيب الأسنان ضربة قاصمة لصورة اللص الظريف..

لقد إنكشف عن إنسان عادى تؤلمه أسنانه فيذهب إلى طبيب الأسنان ويتأوه ويصرخ والطبيب يخلع له الضرس.. إنهارت داخلى صورة اللص الظريف وهو يجلس على كرسى طبيب الأسنان.. لقد انخلع أرسين لوبين من نطاق القدرات الخارقة وعاد إنسانا يتألم ويمرض.. شأنه شأن أى بشر عادى..

لم يكن ذكاء من موريس لبلان أن يحدثنا عن هذا الجانب فى حياة بطله اللص الظريف.. لم يكن هناك داع على الإطلاق لهذا المشهد، ولعل الكاتب كان معتكر المزاج، ولم يكن يدرى ماذا يكتب، وربما كان الإلهام قد تباطأ عنه أو تأخر، فكتب هذا المشهد الذى بدا غريبا للقراء من الشباب الصغير.. مثلما بدا موجعا ومحطما لصورة البطل..

لا أعرف متى توقفت عن قراءة أرسين لوبين وشرلوك هولمز، ولكن ذلك وقع فى شبابى المبكر، حين إنتهيت من قراءة كل ما كتبه عنهما سير أرثر كونان دويل، وموريس لبلان..

تقدمت قليلا فى السن، وغادرت عالم المغامرة والبطولة معا، وإنتقلت إلى عالم المشاعر والأحاسيس فى الرواية والقصة..

بعد ثلاثين عاما أو أكثر..

وقعت فى يدى رواية قديمة لأرسين لوبين.. ووجدت نفسى أقول: سوف أقرأ هذه الرواية وأستعيد ذكرياتى معها.

قرأت صفحات قليلة، وكانت الصفحات مثيرة وتقول أن أرسين لوبين قد أدرك أن وراء الأكمة ما وراءها..

وكانت هذه هى العبارة السحرية التى تبدأ بها روايات أرسين لوبين أو تجدها فى ثناياها..

وبعد قليل بدأت أدرك أننى كنت مخدوعا.. قرأت عبارة تقول: وأدرك أرسين لوبين السر على الفور حين أدرك أن حجم الدولاب كان أكبر من حجم الحائط..

قلت لنفسى كيف يكون حجم الدولاب أكبر من حجم الحائط..

لعل العكس هو الصحيح.. أو بالتأكيد لابد أن يكون العكس صحيحا، فيكون حجم الدولاب أقل من حجم الحائط.. ولكن هذا أمر طبيعى وليس فيه سر من الأسرار..

مضيت فى القراءة ثم توقفت من السأم. بدت لى المغامرات خارقة وغير واقعية وصبيانية.. وخيل إلى أن أرسين لوبين لايمكن أن يكون مالكا لكل هذه القدرات المزعومة، والدليل أننى بعد أن ـ عقلت ـ لم أستطيع أن أنهى روايته، إلى جوار زيارته القديمة لطبيب الأسنان..

وعادت بى الذكريات لأيام الصبا.. أيامها كان أرسين لوبين موضع ثقة كاملة، كان مثل زوجة قيصر فوق مستوى الشبهات.. ومن بينها شبهة الكذب، وكان كل ما يفعله أو يقوله موضع تصديق كامل..

أهو السن الصغير الذى دعانا لتصديقه، أم روح البطولة الكامنة فى أعماقه، والتى تدفعه لسرقة اللصوص ورد المال إلى الفقراء..

أم أن سحره كان يكمن فى المطاردات المثيرة التى تقوم بها الشرطة لإمساكه ورغم ذلك يستعصى عليهم.. أشياء كثيرة لا أعرف تماما أيها كان سبب تربعه على عرش القلوب.. ولعل الأسباب مجتمعة هى السر.

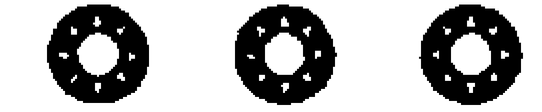
إن المثالية عادة هى التى تحرك الشباب وتجعل قلبه يميل حيث مالت المثالية، إن أرسين لوبين رغم كونه لصا، كان فى حقيقة أمره يطبق روح القانون ونصوصه بأكثر مما يطبقها رجال الشرطة الذين يتعقبونه..

من هنا وقف القراء فى صفه، وراحوا يصفقون له كلما إختفى بعد عملية ناجحة من عملياته..

إن الشباب حلقة من حلقات العمر، وهناك شيوخ يودون الرجوع إلى الشباب، وهناك من يألف شيخوخته ويرفض الرجوع لشبابه مثل شاعرنا الذى قال :

خلقت ألوفا لو رجعت إلى الصبا

لودعت شيبى موجع القلب باكيا



كان وجهه من الوجوه المميزه.. أما ملامح الوجه فكانت حادة وطيبة فى نفس الوقت.. أما رأسه فلم يكن الناظر إليه يعرف من أين تبتدئ ولا أين تنتهى.. كان رأسه ضخما ومستطيلا فى نفس الوقت..

أن مؤخرة رأسه وحدها مثل رؤوس غيره من الخلق، أما مقدمة رأسه فكانت بارزة هى الأخرى كأنها رأس وحدها.. بإختصار كانت له رأسان.. وكان له عقلان.. وكان لابد لمن هو فى مثل حكمته أن يكون له عقلان عقل يتصرف به فى شئون الدنيا والمعاش، وهذا عقل عاقل أوتى الحكمة..

وعقل آخر يتصرف به فى شئون الشعر.. وهذا عقل شاعر له أجنحة من الخيال يحلق بها فى سماء المعانى أو أرضها..

هذا هو الأستاذ الشاعر عبد السلام شهاب.. أما الشعر الذى تخصص فيه وإجاده فكان هو الشعر الحلمنتيشى.. والشعر الحلمنتيشى تعبير عامى مصرى عن الشعر الساخر الهازئ الذى ينظر إلى الدنيا أساسا بمنظار السخرية..

كان عم عبد السلام شهاب شاعراً من شعراء السخرية الكبار.. وكان رغم خضوعه لمنطق الشعراء اللامنطقى.. يختلف عنهم كثيرا.. إن المعروف عادة عن الشعراء أنهم محبون للظهور.. يؤثرون الشهرة على الخفاء..

أما عبد السلام شهاب فكان على العكس من ذلك. كان رجلا لا يعبأ بالشهرة.. ويفضل عليها الإختباء والإستتار.. وكنت أحدثه دائما بقولى:

- يا أستاذ شهاب.. لقد قلت مئات القصائد الساخرة العظيمة ولكنك حتى الآن لم تنشر ديوانا لشعرك.. وهذا تقصير مخيف.. إن الأجيال القادمة لن تعرفك.. وسيضيع بموتك جزء من تاريخ الأدب العربى..

هل كان عبد السلام شهاب صوفيا من داخله.. يؤثر الإستتار على الإشتهار.. أغلب الظن أنه كان كذلك.. إذا كان الصوفى هو من صفا قلبه لله، وإستوى عنده الحجر والماس، فكذلك كان عمو عبد السلام شهاب.. كان هينا لينا

رقيق الإحساس عذب المشاعر لا يعرف حقا لنفسه ولا يسعى نحو المقاعد الأولى فى الدنيا شأنه شأن الموهبين حقا. .

أول مرة شاهدته فيها كان يعمل فى قسم المراجعة بالأهرام. . وكنت قد قصدت القسم لعمل. . فجلست معه وتحدثت وطالت جلستى وإنعقد بيننا رباط الصداقة والحب. . من يومها لم أفارقه حتى ودع الحياة وترك فيها فراغا يصعب أن يسده أحد. . كنا ننصرف من الجريدة إلى بيتى، أو إلى أى مقهى، أو إلى بيت صديق. . المهم أن يكون عم شهاب موجوداً. . كان نجم الجلسة سواء تكلم أو صمت. .

كنا نتحدث حوله ونختلف ويعلو صوتنا وهو جالس يرقب ما يجرى بإبتسامة، حتى إذا سألناه رأيه قال شيئا يمكن أن يكون جوابا ويمكن ألا يكون جوابا. . لم أره خلال الثلاثين عاما التى عرفته فيها غاضباً. . أو ثائراً. . أو حاقداً. . كان كالأرض الطيبة التى يمشى عليها البر والفاجر فتحتملهما معا ولا تضيق بهما. . وكان إذا تحدث نظر إلى الدنيا من خلال زاوية ساخرة أو مضحكة. . ولكم كان يدهش أصدقاءه بقدرته على تجاوز متاعب الدنيا وصعابها بهذه الأريحية والكرم. .

فى الثلاثينات. . كان عبد السلام شهاب يعمل فى جريدة ساخرة تسمى المطرقة وكان إسمها كما يوحى العنوان مطرقة من الحق الذى ينزل على الباطل فيبطله. .

كان الرأى العام فى مصر يسعى نحو الدستور، وكانت الحكومة تؤجل إصداره وتسوف فيه وتعد ولا تفى..

وفى يوم ٢٣ مارس سنة ١٩٣٥ نشرت المطرقة زجلا لعبد السلام شهاب يقول فيه: ـ

«فيه صبر إيه بعد ده لسه كمان قول لى

دا الصبر مرّر قوى... والله ياخلى

وكفاية كل اللى فات من لوعتى وذلى

تقولى لى بكره وبكره تقول لى طب بعده

وييجى بعده كمان ترجع تقول بعده

وايش بعدها يعنى والدستور على بعده والعمر إيه كله.. دى أيام وبتولى!»

قبل ذلك بعامين.. كتب قصيدة نارية بعنوان ترقيع وزارى..

وكانت القصيدة ـ باللغة العامية التى كان يكتب بها معظم الوقت ـ قد صدرت بمناسبة ترقيع وزارة إسماعيل صدقى المعادية للشعب، وإنشقاق ثمانية من أعضاء حزب الأغلبية

وكعادته بدأ القصيدة ببيت من الشعر العربى القديم.. للمتنبى.. قال فى قصيدته:

عيد بأية حال عـدت يا عيـد

بما مضى أم لامر فيـكَ تجديـدُ

أما الوزارة فالترقيـع بهدلـها

وكـل أيامهـا غلـبُ وتنكيـدُ

رئيسها صدقى باشا فى إدارتها

طهقان تعبـان لا رجـلُ ولا إيدُ

لا المنزلاوى ولا العلام صاحبهُ

قد ريّحاه ولا إبن القيس محمودُ

يعنى وجودهمو أو لا وجودهمو

سيّان، والقصد للخانات تسديدُ

قالوا نكيد زعيم الشعب قلت لهم

إن كان فى وشكم دم له كيدوا

كان عم عبد السلام شهاب يكتب شعرا عموديا عاميا.. وكان هذا جزءا من قدراته الخارقة فى الكتابة.

والأصل أن الشعر العمودى لا يكون إلا عربيا فصيحا.. أما الزجل فيمكن أن نكتبه بالعامية.. وهنا يصعب كثيرا على الشاعر أن يكتب الشعر العمودى ولكن عم شهاب كان يفعل هذا ببساطة..

وكان يستخدم فى شعره العامى تعبيرات لا يعرفها إلا سكان الأحياء الشعبية فى قاع المجتمع . .

كتب قصيدة يهاجم الذين يعارضون زعيم الوفد يومئذ بعنوان «غجر يشلقون» بدأها بقول الشاعر القديم

المجد عوفى إذ عوفيت والكرم
وزال عنك إلى أعـدائك؛ الألـــم
لولا جهادك ما كانـت معاهـدة
ولا بـأمتنـــا إستعـــنـت الأمـــم
يا باعث الجيش من ظلماء تربته
فقــام من نومـه فـى كفـه العلـــم
وعاد ينشر فى السـودان رايتـه
وقولــه الحــق عنــد الكـل محتـرم
يا ملغيا لا متيازات الأجانب لا
والله ما فيــك عيــب غيــر أنهمـو
لا يغضبنك منهـم أنهـم غجـر
يشلقون . . فكم من قبلك انشتمـوا
لا تكـره العين إلا كـل مرتفـع
عنها . . ولله ـ طبعا ـ فى كذا حكم
فداً لنعـل حــذاء أنـت لابسـه
تلك الطرابيش فـوق الروس والعمم

الرأس من غيـر مـخ زى قلتـه

ولست تلقـاه يومـا وهـو منسجـم

كان الأستاذ عبد السلام شهاب يفيض بالمرح الداخلى العميق كما يفيض المصباح بالضياء.. ذهب يوما يشترى طربوشا.. وكان رأسه غريبا وسط الرؤوس وكان يعذبه كثيرا أن يشترى الطربوش.. فهو مضطر للبحث عن مقاس لرأسه غير مقاسات بقية الناس.. أخيرا عثر على طربوش يليق برأسه ويغطيها.. سأل بائع الطربوش: بكم

قال البائع وهو يتأمل رأسه ـ بجنيه ونصف.. كان ثمن الطربوش أيامها عشرين قرشا أو خمسة وعشرين قرشا.. ودهش لأن الطربوش غال لهذا الحد..

سأل البائع : لماذا يرتفع سعر هذا الطربوش لهذا الحد.

قال البائع : رأسك ياسيدى ليست عادية، ولن تجد فى مصر كلها طربوشا يصلح لك غير هذا الطربوش.. هذا الطربوش فى الدكان منذ سنين ولا أحد يشتريه. ضحك عم شهاب وقال للبائع. أنظر إلى الموقف من زاوية جديدة.. أنت تعرف أن الطربوش ظل فى دكانك سنوات دون أن يشتريه أحد، المفروض أن تخفض سعره لى.. لو ظل فى دكانك فلن يباع

تأمل بائع الطرابيش الموقف على هذا الضوء الجديد وباع الطربوش لشهاب بأقل من ثمنه..

كان عم شهاب محبا وكان له رأيه الخاص فى الحب..

سنة ١٩٣٩ كتب قصيدة فى المطرقة بعنوان الهوا بلا .. قال فيها

مال وإحتجب.. وإدعى الغضب

بائخ قوى.. شأنه عجب

مال وشه .. هكذا إنقلب

بعد ما أتى .. عاد فإنسحب

هل لكل دا .. والنبى سبب

إننى أنا .. شاعر العرب

فوق جبهتى .. فقرى إنكتب

فى مصائبى .. تاه من حسب

بيت حضرتى .. م الهوى إتخرب

ويمضى فى قصيدته حتى يصل إلى قوله: ـ

والهوى بلا .. يشبه الجرب

فيه أزمة .. تورث التعب

لو رأيتنى .. لصت للركب

شفت عاشقا .. عقله إنجذب

من هيامه . . دمه هرب

لون وجهه . . شابه الذهب

هكذا الهوى . . تركه وجب

طول عمره . . يعوج الضبب

لوهويته . . إحلق الشنب

كان يجيد الشعر العامى والزجل والشعر العمودى، وكان يرى أن فى يده أكثر من صنعة ولكن القضية كلها تتلخص فى البخت المائل كتب قصيدة بعنوان البخت المائل فى المطرقة سنة ١٩٤١ . . قال فيها:ـ

ألا فى سبيل الله ما أنا فاعل

أديب، وبلياتشو . . وحاوى . . وفاعل

هنا فى يدى ـ يا خلق ـ سبع صنائع

ولكننى للهم ـ لا المم شايل

تعد ذنوبى عند قومى كثيرة

ولا ذنب لى إلا الذى هو حاصل.

المازنــــى !

عرفته معرفة وثيقة تشبه معرفتي بقريب من أقرباء الدم..

وربما كانت المعرفة أوثق من هذا وأعظم متانة.. ولعل الميزة الأولى فى معرفته كان جوهرها الإختيار..

إن أقرباء الدم يفرضون علينا عادة، نجدهم حولنا فى الحياة دون أن نستشار فيهم أو نقول رأينا أو نحدد مدى إقتناعنا بهم..

أما أقرباء الفكر فالأمر فيهم يختلف.. نحن نختارهم من بين الآلاف.. وندقق فى إختيارهم طويلا قبل أن نختار.. وتصبح الصلة بيننا وبينهم صلة لا إنفكاك لها ولا عدول عنها..

وقد قرأت له كثيرا قبل أن أختاره. . وكنت أحس كلما

قرأت له أننى أزداد دهشة من صفائه وأزداد حبا لهذا الروقان الجميل الذى كان يشيع فى أفكاره. .

إبراهيم عبد القادر المازنى. . هذا اسمه. .

أما صورته فكانت صورة رجل مصرى أسمر البشرة ذكى العينين. . ورغم الإبتسامة التى توشك أن تولد فوق شفتيه، كان عمق العينين ينطوى على حزن عميق. . حزن صاف يشبه حزن إنسان عرف حقيقة الدنيا، وأدرك أنها إلى فناء، وشاهد كيف يتصارع المتصارعون فيها على الحطام، ورفض أن يلعب هذه اللعبة، كبرياء منه ان يضيع جهده ووقته فى صراع على الحطام، ومن هنا فقد قبل لنفسه موقف المتفرج. .

وقف فى الصحراء ونظر. . إختار أن يكون بيته على حدود الأبد. . لو كان للأبد حدود، وهذا هو بيته وليس هذا بيته وإن كان هو ساكنه، فما عرف المازنى له شبر أرض فى كل هذه الكرة الأرضية، ولقد كانت له قصور، ولكن فى الآخرة. . وقد باع بعضها والبعض مرهون بحينه من الضياع. . وهكذا وقف معلقا بين الحياتين، كما سكن على تخوم العالمين. .

إبراهيم عبد القادر المازنى. . هذا هو إسم واحد من أعظم الكتاب الساخرين فى مصر. . وليست سخريته من لون هذه

السخرية المصرية التى نعرفها بإسم خفة الدم.. إنما هى سخرية من لون إنسانى واسع الصدر والقلب..

من الصعب أن يتصور المازنى أن أرضا ملكه.. ملكه كيف؟

يستطيع أن يزرعها إذا شاء، أو يبنى فوقها إذا أحب.. ولكن هذا كله ليس إلا نوعا من الإرتفاق..

أما أن يفهم العقل على وجه مقبول جلى إن هذه القطعة من الأرض، هذه القشرة المنتشرة على كتلة العالم، هذه الطبقة المتصلة بطبقات دونها ـ ملكه.. فهذا مالا يصدقه ولا يدركه..

لقد إنخلع المازنى من ملكية الأشياء.. وأصبح عندئذ يملك نفسه.. فالذين يتملكون الأشياء تتملكهم الأشياء فى نهاية الأمر ويفقدون حريتهم.. وقد رفض المازنى أن يفقد حريته وظل محتفظا بها إلى آخر لحظة فى حياته..

هو رقيق العبارة إذا أراد أن يرق.. وهو عميق المعنى رغم بساطة ما تتصوره أنت من البساطة.. وهو خفيف الظل إذا أراد أن يسخر.. وهو يسخر سخرية صافية ورقيقة لاجرح فيها ولا إيلام.. وهو ناقد إذا عمد إلى النقد، وهو شاعر فى نظرته إلى الحياة والموت وأحيانا يسخر من نفسه.. وأحيانا أخرى يسخر من قارئه..

وطوال الوقت يعقد المعرفة معك، ويمد إليك يد الصداقة الحانية.

منذ ٧٠ سنة.. فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٢٤.. نشر المازنى كتابه حصاد الهشيم..

كان الكتاب يقع فى ٤٥٠ صفحة.. وكان ثمنه عشرة قروش.. ويبدو أن معظم الكتب كانت تباع يومئذ بخمسة قروش أو سبعة، ومن هنا أحس الناشر أن الكتاب قد لا يباع وربما ركد فى السوق، ومن هنا فقد سأل المؤلف أن يكتب مقدمة يهون فيها من أمر القروش العشرة على المشترى أو القارئ..

وإستجاب المازنى وكتب يقول :

أيها القارئ..

هكذا حاف.. لم يقل عزيزى القارئ أو حبيبى القارئ الكريم، أبدا.. إنما نادى على القارئ وقال له - أيها القارئ..

هذه مقالات مختلفة فى مواضيع شتى كتبت فى أوقات متفاوته وفى أحوال وظروف لا علم لك بها ولا خبر على الأرجح..

وقد جمعت الآن وطبعت.. وهى تباع بعشرة قروش لا أكثر..

ولست أدعى لنفسى فيها شيئا من العمق أو الإبتكار أو السداد، ولا أنا أزعمها ستحدث إنقلابا فكريا فى مصر، أو فيما هو دونها كحى شبرا أو الفجالة.. ولكنى أقسم إنك تشترى عصارة عقلى وإن كان فجا، وثمرة إطلاعى وهو واسع، ومجهود أعصابى وهى سقيمه.. بأبخس الأثمان..

وتعال نتحاسب..

إن فى الكتاب أكثر من أربعين مقالا تختلف طولاً وقصراً وعمقاً وضحولة، وأنت تشترى كل أربع منها بقرش.. وما أحسبك ستزعم إنك تبذل فى تحصيل القرش مثل ما أبذل فى كتابة المقالات الأربع من جسمى ونفسى.. ومن يومى وأمسى ومن عقلى وحسى، أو مثل ما يبذل الناشر فى طبعها وإذاعتها من ماله ووقته وصبره..

ثم إنك تشترى بهذه القروش العشرة كتابا، هبه لا يعمر من رأسك خرابا، ولا يصقل لك نفسا أو يفتح عيناً أو ينبه مشاعراً، فهو ـ على القليل ـ يصلح أن تقطع به أوقات الفراغ وتقتل به ساعات الملل والوحشة، أو هو على الأقل زينة على مكتبك.. والزينة أقدم فى تاريخنا نحن معاشر الآدميين النفعيين من المنفعة وأعرق.. والمرء أطلب لها فى مسكنه وملبسه وطعامه وشرابه.. وأكلف بها مما يظن أو يحب أن يعترف..

على إنك قد لا تهضم أكلة مثلا فيضيق صدرك ويسوء خلقك، وتشعر بالحاجة إلى التسرية والنفث، وتلقى أمامك هذا الكتاب فالعن صاحبه وناشره ماشئت.. فإنى أعرف كيف أحول لعناتك إلى من هو أحق بها. ثم أنت بعد ذلك تستطيع أن تبيعه وتنكب به غيرك، أو تفككه وتلفف فى ورقه المنثور ما يلف، أو توقد به ناراً على طعام أو شراب..

أفقليل كل هذا بعشرة قروش..

أما أنا.. فمن يرد إلىَّ ما انفقت فيه.. ومن يعيدلى ما سلخت فى كتابته من ساعات العمر الذى لا يرجع منه فائت.. ولا يتجدد كالشجر ويعود أخضر بعد اذ كان أصفر.. ولا يرقّع كالثياب أو يرفى..

وفى الكتاب عيب هو الوضوح فإعرفه.. وستقرؤه بلا نصب، وتفهمه بلا تعب، وقد يخيل إليك من أجل ذلك أنك كنت تعرف هذا من قبل وأنك لم تزد به علما..

فرجائى إليك أن توقن من الآن أن الأمر ليس كذلك، وأن الحال على نقيض ذلك. وأعلم أنه لا يعنينى رأيك فيه.. نعم يسرنى أن تمدحه كما يسر الوالد أن تثنى على بنيه، ولكننى لا يسوءنى أن تبسط لسانك فيه إذ كنت أعرف بعيوبه ومآخذه منك.. وما أخلقنى أن أضحك من العائبين، وأن أخرج لهم

لسانى إذ أراهم لا يهتدون إلى مايبغون وإن كان تحت أنوفهم. . ومهما يكن من الأمر. .

وسواء أرضيت أم سخطت. . شكرت أم جحدت، فاذكر - هداك الله - إنك آخر من يحق له أن يزعم أن قروشه ضاعت عليه. .

أولى بالشكوى منك الناشر ثم الكاتب. .

تحت هذه المقدمة كتب إبراهيم عبد القادر المازنى إسمه. .

أما خاتمة الكتاب فكانت لا تقل لطفا وروعة عن المقدمة. . ويبدو أن الطبعة الأولى من الكتاب نجحت وكان الكاتب والناشر يظنان أنها لن تنجح، وهكذا إعترف المازنى بقوله:-

«أخطأ حسابى وحساب الناشر، فجاوز الكتاب ما كنا نتوقع له، وما كان العزم أن نقصره عليه، فمعذرة إذا كنا قد أسأنا بالإطالة. . وضعفنا بها بواعث الملالة».

ويعترف إبراهيم المازنى إن الكتاب بعد أن نشر صار يمثل إتجاه الناشر أكثر مما يمثل نفس الكاتب، فقد رأى الناشر أن يخلى الكتاب من نقد المعاصرين ليريح نفسه من حماقات المعاتبين. . وحسناً فعل أو شراً فعل. . كما تريد. . المشكلة أن الكتاب بهذه الصورة يعرض من المازنى جانبا ويطوى جانبا. . وهو يصور للقراء لين ملمسه ويستر أظافره، ويبديه بإسم الثغر

منزوع النيوب مقلوع الضروس، ولا يبالى المازنى كيف يبدو للقارئ، إنما هو يعترف بكل أمانة أنه ما كان ليعنى بجمع مقالاته هذه بعد أن طويت مع الصحف التى ظهرت فيها، لولا أزمة مستحكمة فرجها الكتاب.

لم ير المازنى انه أنقذ كتابته التى نشرت فى الصحف أو أحياها، إنما يرى أنه بعثها من مرقدها فى القبر لتلقى حسابها.. ولعله كان خيراً لها أن تظل ملفوفة فى أكفانها..

يقول المازنى - فى مجال التواضع الإنسانى الجميل.

«أحسبنى بعد أن صارحت القارئ بهذا الذى لم يكن يغلمه، لا أحتاج أن أقول أنى لا أكتب للأجيال المقبلة.. ولا أطمع فى خلود الذكر.. ترى هل ستكون الأجيال المقبلة محتاجة - كجيلنا - إلى هذه الكلمات..»

أليست أحق أن يكتب لها نفر منها..؟

أمن العدل أم من الغبن أن نكلف بالكتابة لجيلنا ولما بعده أيضا..

تالله.. ما أحق هذه الأجيال المقبلة بالرثاء إذا كانت ستشعر بالحاجة إلى ما أكتب.. ليتهمها غيرى بالعقم إذا شاء..

هذه كلمات المازنى..

لم يكن يعلم أن حاجة الأجيال المقبلة إلى أدبه وفنه أشد وأعظم من حاجة الجيل الذى عاش فيه..

رحم الله المازنى . . وأبقاه حيا فى قلوبنا.

۞ ۞ ۞

أميـن فهمـى



الموسيقار / أمين فهمى

سيادتى سادتى.. تستمعون الآن إلى تقاسيم على القانون للأستاذ الفنان أمين فهمى.. أنصت للعزف المنفرد وأحسست أننى أنتقل من المكان والزمان إلى زمن بعيد فى التاريخ. لم نعد فى مدينة القاهرة فى عصرنا الحديث، نقلنا العزف إلى بغداد أيام كانت شوارعها مغطاة بالسجاجيد ومسقوفة بالقماش الملون.

ثمت عطر غامض يشيع فى الجو الذى صنعه العازف.. أهى رائحة بخور أم رائحة عود يحترق.. الناس يذهبون ويجيئون وسط رخاء كامل ورضاء تام... النغم فيه تطريب يعبر عن روح العصر القديم.. وفيه جو شرقى غنى..

كان السوق يزاول أعماله فى البيع والشراء والفرجة

والمساومة، وإن كان هذا كله يتم فى مناخ من التراخى والسعادة. . .

فكرت فى الموسيقى الشرقية. . إنها موسيقى قادرة على تجاوز مشاكل المكان والزمان مثلما إنها قادرة على بعث الطرب فى نفوس من يستمع إليها. . هل كانت عصور الشرقيين بهذا الطرب المتراخى السعيد اللامبالى. . لم تكن عصور الشرق كذلك، لماذا جاءت موسيقاهم على نقيض عصورهم

أتكون الموسيقى قد أُستخدمت مثل قرص مهدئ يشغل الناس عن مظالم السلاطين والجباة، ويعطيهم فى الخيال ما لم يقدمه الحكم لهم فى الحقيقة. . لم أعرف الجواب، وتسللت إلى الأنغام فذابت الأسئلة وسط هذا الطرب الجميل الذى لا تعرف له بداية من نهاية، وإن كنت فى نهاية الأمر تستسلم للطرب وتذوب مشاكلك وأحزانك. . .

حدثت الأستاذ عبد السلام شهاب عن إكتشافى لعبقرى القانون أمين فهمى فقال:

ـ هذا صديقنا الحميم وصديق الشيخ زكريا أحمد. . .

رجوته أن يعرفنى به. .

ومرت الأيام، وإصطحب الأستاذ شهاب معه شخصا وقدمه إلى قائلا:

ـ الأستاذ أمين فهمى. . .

صافحته بحرارة وإنعقدت بيننا الصداقة من الوهلة الأولى، كان بالنسبة لى فنانا كبيرا وكنت بالنسبة له معجبا من معجبيه الكثيرين. .

كان إنسانا بسيطا للغاية فى كل شئ. . حتى فى ملابسه. . كان يرتدى بدلة كاملة رغم حرارة الجو وقيظه ورغم ذلك كانت البدلة متواضعة للغاية. . ولست أذكر أنه غير هذه البدلة طوال معرفتنا له، وهى معرفة إمتدت سنوات طويلة. . بعد أن توثقت بيننا الصداقة، سألته فى موضوع البدلة.

ـ يا أمين بك. . لماذا لا ترتدى أفخر الثياب. . أنت أستاذ من أساتذة الموسيقى العربية، مثلما أنك عازف من أعظم العازفين على القانون. . . كيف تمضى بهذه الملابس المتواضعة. .

ضحك وكان تعليقه الساخر هو التالى: ـ

ـ هل أنت ممن يقيسون الناس بملابسهم. .

أنكرت التهمة ولكننى لم أفهم سر تواضعه هذا إلا فيما بعد. .كان يكسب كثيرا، ولكنه كان كريما إلى الحد الذى يضع فيه إنفاقه على نفسه فى نهاية القائمة. كان معظم مرتبه يذهب للفقراء أو اليتامى. . ولم نكن نعرف أين ينفق نقوده. . وكنا

أحيانا نسخر منه لأنه لا يساير الموضة ولا يهتم بملابسه، وكان يسخر منا ويسمينا المتأنقين السخفاء..

مرت الأيام وأصبحنا لا يهنأ لنا خروج أو دخول إلا مع أمين فهمي.. كان الوقت الذى لا نراه فيه هو وقت العمل، أو وقت النوم، وبإستثناء هذين الوقتين كنا نبحث عنه ونجتهد فى العثور عليه حتى نلتقى به...

أصبح واحدا من الشلة.. وقررنا ضمه للعصابة، وكنا يومئذ قد ألفنا عصابة لها هدفان اثنان.. أكل النيفة، وهى لحم الجديان الصغيرة.. والضحك... وكانت أهداف العصابة لا تتعارض مع القانون ولا العرف ولا الآداب المتبعة.. ومن هنا كانت عصابة معلنة تعمل فى النور..

وأذكر يوم عرضت عليه الإنضمام للعصابة...

قلت له يومئذ: أمين بك.. أننى أرشحك للإنضمام إلى العصابة.

سأل فى دهشة: أى عصابة

قلت له: عصابتنا.. ثم شرحت له أهداف العصابة فى الأكل والضحك..

قال: ليس لى فى الأكل باع مثلكم.. وإن كنت محبا للضحك.



إجلال المنيلاوى.. حفيدة الشيخ المنيلاوى.. مع أستاذها الراحل أمين فهمى.. فى درس على القانون

قلت له: لابأس.. لقد توفر فيك شرط من شروط العصابة وهو حب الضحك...

وهكذا دخل أمين فهمى عصابتنا الخيرية، وإكتشف بعد أن دخل العصابة أنه ملتزم بأن يطعمنا النيفة مرة كل أسبوع. . ولم يتأخر الرجل رغم إنه لم يكن من الدباغين أو عشاق الطعام. . .

وكان لديه ما يشغله من الأمور الجادة. .

كان أستاذاً للقانون فى معهد الموسيقى العربية، وكان واحداً من كبار الفنانين العازفين على القانون، وكان وفيا للشيخ زكريا أحمد، وكانت له مؤلفاته فى الموسيقى العربية، وهى مؤلفات أكاديمية كان يصعب علينا فهمها أو إستيعابها لكثرة ما فيها من النوت الموسيقية. .

بإختصار. . كان أمين فهمى مدرسة بأكملها. . وكان ساخراً فى قرارة نفسه. . كثيراً ما كان يجلس معى فى بيتى وأنا أكتب. . وكان يلاحظ إننى أكتب وحولى مجموعة من الكتب التى استشيرها وأعود إليها كل لحظات. . .

وقال لى يوما بلطف: ألا تحس بالزهق من فرط ما تنقل من الكتب ومتى تكتب بغير إستعانة بالكتب. .

قلت له: يا أمين بك. . أنا أكتب دراسة وأحتاج إلى الكتب، ولو كنت أكتب فنا لما إستعنت بالكتب. .

إبتسم وقال: هذا ما قصدته. .

كان انسانا مدهشا..

كان يضئ بالثقة والحب مثلما يشع المصباح، وكان وجوده فى مكان كافيا ليخلع على المكان روحا من المرح والتفاؤل والبراءة.. كان بريئا يصدق كل ما يقال له.. وقد إستغللنا براءته فى كثير من الفصول المضحكة التى كنا ندبرها له لكى نضحك.. ونحقق الهدف الأصلى من وجود العصابة.

حدثنا يوما أن هناك تحويجة تصنع من المحلب والسكر وبعض أنواع العطارة.. وهى تحويجة أفضل من الفيتامينات ودورها فى تحقيق الصحة لا ريب فيه..

قلنا له: إحضر لنا منها برطمانا.. وإتفقنا مع صديقنا يوسف أن يأكل نصف البرطمان ثم يمثل أنه مات.. ولعب يوسف دوره باتقان...

هجم على البرطمان والتهم نصف التحويجة ثم نهض واقفا ووضع يده على قلبه ثم سقط على الأرض ميتا.. التفتنا إلى أمين فهمى وقلنا له.

- أمين بك.. الرجل مات من الدواء الذى أحضرته..

شحب وجه أمين فهمى وإصفر لونه وقال

- ماذا نفعل الآن؟

قلنا له: نريد طبيبا يكشف عليه فلعل فيه بقية من الروح

ولعلنا نستطيع إنقاذه.. إن الرجل ضحيتك.. وقد مات من دوائك. ونزل الأستاذ أمين يبحث عن طبيب لإنقاذ ضحيته.. حين عاد بعد أن لم يجد طبيبا وجد يوسف جالسا بيننا وهو يضحك وأسمعنا رأيه الحقيقى فينا، ولكنه صفح عنا فيما بعد..

كان أمين فهمى يحترم فنه ويراه جزءاً من شخصيته كأستاذ أكاديمى، كان يمضى الساعات الطوال فى معهد الموسيقى العربية ليعلم تلميذا أو تلميذة من تلاميذ المعهد.. وكان ينفق الوقت والمال لكى يعلم تلاميذه بدروس خصوصية لايتقاضى عنها أجرا...

فى نفس الوقت كان يرفض أن يعزف على القانون فى حقل موسيقى يذاع فى الإذاعة أو التليفزيون...

سألناه: لماذا.. رغم أن هذا العزف كان مربحا للغاية...

قال: أنا لا أبيع فنى.. وإنما أعلمه لتلاميذى..

كان صلب الرأى فى هذا الموضوع، وقد عاش حياته ومات دون أن يقتنى ثروة أو يصنع مالا أو يدخر شيئا للزمن. كانت له أسراره التى يخفيها عنا...

كنا نعرف أنه أعزب ولم يتزوج رغم أنه جاوز الأربعين، وسألناه فى ذلك فقال أنه سعيد هكذا.. حاولنا تزويجه أو

البحث له عن عروس ولكنه كان يصدنا ويرفض هذه المحاولات بحزم فإحترمنا رغبته..

فلما مات إكتشفنا أن له زوجة وإبنة تخرجت من الجامعة.. لم نعرف أنه كان زوجا وأبا إلا بعد أن مات..

ولقد أحسسنا حين مات أن مدرسة فنية تغلق أبوابها، كما أحسسنا أن حياتنا قد نقصت شيئا كثيرا بموته.. ومع مرور الوقت إنغرس فى قلوبنا هذا الإحساس الفاجع بأننا فقدنا أستاذاً وصديقاً وفناناً يستحيل تعويضه.. وتصاعد داخل قلبى هذا الإحساس بالذنب.. لم نوفّه حقه أيام الصداقة كما ينبغى، وكثيراً ما كنا نتشاقى عليه ونمارس عفرتتنا عليه.. ولم أعرف كيف أعتذر له بعد أن مات... ثم قلت فى نفسى ذات عام..

- سأحج هذا العام عن أمين فهمى.. أعرف أنه لم يحج.. وحججت عنه حجة.. وجاءت وقفة عرفات يوم جمعة فى حجته فقلت إنها نيته الطيبة كان الجو شديد الحرارة ولكن الله لطف بعباده الذين وقفوا يتضرعون إليه فى عرفات وأمطرت السماء رذاذا خفيفا فكأنما كان هذا مساهمة من السماء فى البكاء مع الباكين من الحجاج...

دعوت له يومئذ، وبكيت نيابة عنه فلم أعرف هل كان بكائي له.. أو عليه..

كل ما أحسسته أن الله قد تقبّل منه ومني ببركته..

o o o

محمد أفندي بهجت !

كان ميلادى حدثا تنتظره الأسرة بقلب واجف.. فقد حملت أمى بعد زواجها، وحين جاء موعد الولادة قال الطبيب أن الجنين فى وضع غير طبيعى، ونحن الآن أمام أمر مـن أثنين..

ـ إما أن ننقذ الوالدة ونضحى بالجنين.. وإما أن ننقذ الجنين ونضحى بالوالدة وإنتصر الرأى الأول وتمت التضحية بالجنين..

حين حملت أمى بعد ذلك كان الخوف هو الإحساس الغالب على الجميع. . ماذا لو تعسرت الولادة؟. ماذا لو عاد الموقف السابق إلى الحياة مرة أخرى. . غير أننى خيبت التوقعات وولدت قبل أن يحضر الطبيب ولادة سهلة للغاية. .

وتجمع الخوف والحب حولى منذ البداية. . ثم جاءت بعدى ثلاث شقيقات من الإناث. . كنت الولد الوحيد على ثلاث

بنات.. كنت ديك البرابر كما يقولون فى الأمثال الشعبية..
وكان المفروض ما دمت ولدا وحيدا على ثلاث بنات أن
أتعرض للتدليل والتهنين.. ولكن ما حدث كان هو العكس
تماما..

لست أعرف الآن هل كانت شقاوتى هى السبب فى تعرضى
لكثير من المشاكل الحرجة، أم أن الحب والخوف معا دفعا
الأسرة بأكملها إلى معاملتى بقسوة حتى لا يفسدنى التدليل..

لست أعرف الجواب الحقيقى على هذا السؤال المزدوج،
وإن كنت أُرجح أن شقاوتى وخوف الأسرة معاً كانا من
الأسباب التى وضعتنى تحت رقابة مستمرة، وإستدعت
إصطدامى المبكر بالسلطة.. كان أبى يمثل السلطة فى بيتنا..
هو الإمبراطور. أو الملك..

وكانت أمى تنتمى هى الأخرى للسلطة، وتمثل وزير
الإمبراطور الأول.. وهكذا تحالف الإمبراطور ووزيره على
شخصى الضعيف، وأبرز الإثنان سيف الحزم والإنضباط
والصرامة..

وهكذا بدأت تمردى على السلطة منذ سن مبكر للغاية..
كان أبى أستاذاً فى المدارس الثانوية.. محمد افندى بهجت..
ذلك كان إسمه المختصر.. وكانت كلمة الأفندى يومئذ رتبة
هامة.. أنها تسبق البيك والباشا.. وهى إذن علامة من

علامات الطريق، ودليل يؤكد قرب إقتراب الأفندى من رتبة البكوية. . . .

كان أبى شخصية ساحرة فى جانب من جوانبه، وكان شخصية صارمة فى الجانب الآخر. . كان مدرساً من هذا الرعيل الأول الذى يعتبر التدريس رسالة حيوية ترتيبها الأول فى مجال الأهمية. . كانت الدنيا بالنسبة له مدرسة كبيرة، مثلما كانت الدنيا بالنسبة ليوسف وهبى مسرحا كبيرا. .

كان أبى يعتقد إن المعرفة، والعلم، والتدريس، هى أسباب خلق الخلق وقيام الدنيا. . وكان النجاح فى المدرسة مسألة جوهرية للغاية وكان التفوق أهم من النجاح، فلا عبرة بهذا النجاح المتوسط التيلة. . إن الحمار يمكن أن ينجح نجاحا متوسط التيلة، أما الإنسان وحده فهو القادر على التفوق. .

بالنسبة لى كانت هناك علوم أحبها وعلوم أنفر منها، وكانت هناك أشياء أتفوق فيها دون بذل مجهود كبير، وأشياء لا أستطيع حتى محاولة فهمها. . ومن هنا فقد خضعت معاملتى فى البيت لدرجاتى المدرسية. . إذا كانت الدرجات عالية عوملت فى البيت كإنسان له كل حقوق الإنسان، فإذا إنخفضت درجاتى فى المدرسة تغيرت المعاملة فى البيت. .

كنت أحب اللغات والتاريخ، وأكره الهندسة والجغرافيا، وكان أبى مدرساً للتاريخ واللغة الإنجليزية والجغرافيا. .

وفى كل وقت من أوقات البيت كنت مهددا بأن يسألنى أبى سؤالا فى اللغة الانجليزية.. لا يستطيع شكسبير الإجابة عليه..

وأحيانا كان يقول لى جملة ما ويطلب منى إعرابها بالانجليزية، وكنت مندفعا أجيب بسرعة قبل أن أستشير عقلى..

إذا كان الجواب صحيحا فهذا معناه أننى سأقبض ريالا وأذهب إلى السينما هذا المساء، وإذا كان الجواب خطأ تصرف أبى بشكل آخر.

فى البداية كان يضع يديه حول رأسه كأنه يتعرض لمصيبة لم يتعرض لها أحد منذ بدأ التاريخ.. ويظل هكذا صامتا فجأة..

ثم يرفع يديه عن رأسه وتندفع يده إلى وجهى.. وأسمع صوت إرتطام جامد.. هذه يده التى نزلت بالقلم على وجهى.. بعد ذلك اسمع صوت إرتطام آخر.. هذا قلم لا شك فيه.. وهو ينزل على وجهى حيث أرى بعده نجوما كثيرة حمراء وصفراء وخضراء..

ثم أتنبه إلى وجوب الدفاع عن النفس فأرفع يدىَّ معاً لاخبئ وجهى مثل ملاكم إنهالت الضربات على وجهه.. وأنتظر أن أسمع أصواتا أخرى ولكن أبى ينصرف من المكان

وقد علا وجهه وجوم حزين وبدا مشهده كأن هذه هى نهاية العالم..

بعد ذلك بساعات قليلة يبدأ أبى فى التودد إلىَّ، أنه يستدعينى ثم يقول لىّ السؤال مرة أخرى بهدوء.. ويجيب عنه الإجابة الصحيحة، ويشرح لى لماذا كانت إجابتى خطأ.. ثم يرمى إلىّ بريال فضى صحيح ويترك لىّ حرية الذهاب إلى السينما..

كان كل أصدقائى يتمتعون عنى بميزة نسبية.. هناك مدرسة فى حياتهم، وهناك بيت.. أما أنا فلم يكن هناك غير مدرسة هناك ومدرسة هنا..

كان البيت عندنا مدرسة، وكانت المدرسة مدرسة.. ولما كان الإنسان يحتاج إلى بيت ومدرسة، ولا يصلح له أن تكون هناك مدرسة فقط، فقد تصرفت فى الموضوع وإعتبرت المدرسة بيتا، والبيت مدرسة وهكذا مارست فى السنوات الأولى من الدراسة شقاوة فى المدرسة لا يمارسها أحد فى المدرسة عادة..

أذكر أول تجربة لى فى المدرسة الثانوية.. التحقت بعد الدراسة الإبتدائية بمدرسة التوفيقية الثانوية، وكنت سعيدا لإننى ألبس بنطلونا طويلا وتملؤنى أحاسيس بأننى قد كبرت وصرت رجلا.. كان أبى مدرسا بهذه المدرسة نفسها.

وفى اليوم الأول للدراسة.. دخلت الفصل قبل وصول المدرس.. وجدت فى نهاية الفصل شابا طويلا يصعب على المرء أن يتصور أنه طالب فى السنة الأولى، كان هذا الطالب يرسب كل عام، وكان أبوه غنيا، وبالتالى فلم يكن فى حاجة ماسة للتخرج من المدرسة والبحث عن لقمة عيشه.

إستدعانى هذا الطالب وكان زعيم الفصل.. وقال لى:ـ

ـ إسمك ايه.

قلت له إسمى فقال لى إسمه وعرفنى بنفسه كزعيم للفصل، ثم قال لى ـ أنت الآن تلميذ بالثانوى. لقد كبرت وصرت رجلا.. ويجب أن تتصرف برجولة مع المدرسين.. يقولون لك: أخرج من الفصل.. فتقول ـ لأ مش خارج.. هو أيه؟

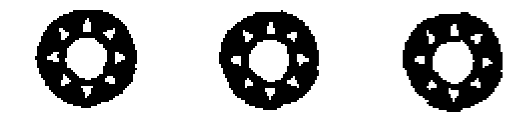
ملأنى الزعيم بالتمرد، ولم يكن فى حاجة لذلك فقد كنت مليئا به وجاءت الحصة الأولى..

وأحدثت بأقدامى صوتا فأمرنى المدرس أن أخرج من الفصل، ولكننى رفضت الخروج وتمردت عليه وفعلت كل ما طلبه منى زعيم الفصل وسألنى المدرس عن إسمى.. ثم عاد يسألنى هل أنا إبن الأستاذ محمد بهجت المدرس فى نفس المدرسة.

أجبت بالإيجاب فأرسل يستدعى أبى..

وجاء أبى وأخمد التمرد مثلما كان جنكيز خان يخمد تمرد أعدائه بسرعة وحسّم وصرامة..

وقد تدخل أستاذ الفصل فى المعركة حين صعبت عليه، ولكن تدخله لم يستطع أن يوقف الضرب.. وكانت هذه هى البداية.



أبـــى !!

كان أبى يرى أن الدنيا مدرسة كبيرة..
هذه المدرسة الكبيرة يمكن تلخيصها فى المدرسة الصغيرة التى يتعلم فيها التلاميذ على أيدى المدرسين

ومن هنا فقد كان حكمه على الأشخاص كالتالى.

هل نجحت فى المدرسة؟

إذا كنت قد نجحت فهذا يعنى أنك إنسان ناجح.. وإذا كنت قد رسبت فهذا يعنى أنك إنسان فاشل.. ولا تصلح لشئ.

بعد هذه الخطوة الأولى فى الحكم على الأشخاص كان يسأل عن درجات النجاح.. كم حصلت فى التاريخ كم كانت درجتك فى اللغات.. وبناء على هذه المعلومات يصدر الحكم النهائى من الكمبيوتر.. كنت أتصور أن أبى يتصرف مثل الكمبيوتر.

إن الكمبيوتر بلا مشاعر.. وهو لا يلتمس المعاذير لمن رسب هذا العام لأسباب خارجة عن الإرادة.. هكذا كان تصورى فى البداية.. ثم كبرت أكثر وبدأت أفهم أبى بشكل أفضل.. كنت أختلف عن أبى إختلافاً واضحاً...

كان هو منضبطاً كل الإنضباط... وكنت أعتبر الإنضباط مشكلتى الشخصية، فأنا لا أستطيع أن أنضبط إلا مختارا.. لا أحد ينكر أهمية وجود انضباط لكى تسير الحياة ولكن هذا الإنضباط لا يجب ولا ينبغى تطبيقه على العباقرة. إن رجلا مثل بيتهوفن أو شوبان أو ديستويفسكى أو جوجول لا يجب أن يعاملوا كما يعامل الجنود فى الجيش... إن هذا يكون ظلما لهم.

لم تكن هذه الفلسفة تقنع أبى.. إنه يرى أن النجاح يبدأ فى المدرسة.. ولا عبرة لأى مجد يحققه الإنسان إذا كان قد فشل فى مدرسته.. كان أبى تقليديا فيما يتعلق بهذا الموضوع..

كانت وجهة نظره أن الدنيا مدرسة كبيرة، ولكن هذه المدرسة تابعة للمدرسة الصغيرة التى يتعلم فيها التلاميذ. وكنت أعتقد أنه لا علاقة بين النجاح فى المدرسة والنجاح فى الحياة لأن الحياة شئ مختلف تماما عن المدرسة.



أبى (محمد أفندى بهجت)

كان أبى منطقيا مع نفسه.. كان يرى أن التعليم رسالة كبرى.. وأنه أهم شئ فى الحياة، إن الفرق عند أبى - بين الحيوان والإنسان أن الإنسان قد دخل المدرسة وتعلم، بينما الحيوانات تسير حرة بغير تعليم.

ولم يكن التعليم أيام أبى يشبه التعلبم هذه الأيام، حيث

تتقدم فكرة الإرتزاق على فكرة الرسالة... إنما كان التعليم - في مجمله - ينظر إلى التدريس بوصفه رسالة لا غنى عنها للبشرية.

رسالة تشبه رسالات الأنبياء... مع الفارق بينهما فى نوع التعليم، فعلى حين يقوم الأنبياء بتعليم البشرية الحقيقة الكبرى فى الكون كالله والملائكة، يقوم المدرس فى المدرسة بتكملة هذه المهمة وتعليم التلاميذ أسرار المادة فى الكون وتاريخ الحياة والأحياء...

ولم أكن أختلف مع أبى فى هذه النقطة، إنما كان الخلاف الجوهرى بيننا يتمثل فى إجابتنا المختلفة حول السؤال التالى:-

هل هناك مصادر تعليم غير المدرسة أم لا... كالتجربة والقراءة والسياحة..؟

كان أبى يجيب أن المدرسة هى المصدر الرئيسى للتعليم، وكنت أتصور أن المدرسة مصدر من مصادر التعليم... ولكنه ليس المصدر الرئيسى للتعليم كانت صرامة أبى تخيفنى وأنا طفل... ولكننى حين كبرت وصار لى أبناء بدأت أفهم الدوافع المستترة وراء هذه الصرامة.

كان أبى يخاف على.. وبسبب خوفه جاءت الصرامة.

كانت قسوته قشرة خارجية، لكن القلب كان مليئا

بالحنان.. وقد مررت بتجربة فى شبابى المبكر أقنعتنى أن أبى يحبنى حبا عميقا ولكنه لا يعترف بذلك..

كانت هذه التجربة فى التوجيهية.. وكان هذا إسمها قبل أن تسمى الثانوية العامة.. كان علينا نحن الطلبة أن نختار بعد النجاح فى الثقافة، دخول القسم الأدبى أو القسم العلمى.

واخترت بعد الثقافة دخول القسم العلمى.. وكان هذا الإختيار هروبا من سلطة أبى.. فقد كان مدرسا للتاريخ والجغرافيا واللغة الإنجليزية. قلت لنفسى لو دخلت القسم الأدبى فسوف يتابع أبى الدراسة يوما بيوم ولن أستطيع أن آخذ حريتى فى اللعب أو التزويغ.. وأذن أهرب بجلدى إلى القسم العلمى.. وهكذا دخلت القسم العلمى..

كنا ندرس الطبيعة والكيمياء والأحياء والهندسة إلى جوار اللغة الإنجليزية والفرنسية، كنت أعشق اللغات، ولم أكن أهتم كثيراً بالعلوم، ورغم انتمائى للقسم العلمى فقد كنت أقرأ التاريخ وأهتم بالأدب أكثر من إهتمامى بالهندسة وحساب المثلثات. المهم أننى لعبت بحريتى فى التوجيهية وجاءت النتيجة كالتالى.

نجحت فى اللغات والهندسة والجبر ورسبت فى الطبيعة والكيمياء والأحياء.

عرف أبى النتيجة فأصيب بكآبة وحزن وإستدعانى للمناقشة لم يضربنى يومها لأن الكارثة فى نظره كانت أكبر من أى ضرب إنما سألنى ـ لماذا حدث ما حدث رغم أننى إخترت القسم العلمى؟ قلت له بأمانة ـ لقد أهملت هذه العلوم بلا عذر، وأنا اعتذر عما بدر منى، ولكننى على إستعداد لتعويض الأمر ودخول الدور الثانى والنجاح فيه... وكان هناك دور ثان بعد أربعة أسابيع من إعلان النتيجة.

كانت الفترة قصيرة للغاية... وكان من الصعب رغم الأصفار التى أخذتها فى هذه العلوم أن أهضمها خلال مثل هذه الفترة القصيرة.. قال أبى يائسا: إذا كنت قد رسبت وكان أمامك عام كامل فهل تنجح وأمامك شهر واحد.

قلت لأبى: أعدك أن أنجح بشرط واحد..

قال: ما هو الشرط؟

قلت له: أريد أن أدخل كلية البوليس.

قال أبى ـ أعدك إذا نجحت فى إمتحان الدور الثانى أن أوافق على دخولك كلية البوليس.

قلت له: إتفقنا.

كانت أحلامى يومئذ وأنا فى الثامنة عشرة من عمرى أن أصبح ضابطا فى الجيش أو البوليس. كانت أحلام المجد

تراودنى وكانت قراءتى للروايات العالمية مثل رواية الحرب والسلام تغذى هذا الميل داخلى. وكنت أتصور نفسى جالسا مع حبيبة لا أعرف إسمها، بينما أنا فى الصباح ذاهب لميدان القتال حيث لا يعلم أحد سوى الله هل أعود أم لا..

أما أمى فكانت تقف ضد فكرة دخولى الجيش أو البوليس وكان رأيها أننى ولد واحد على ثلاث بنات، ويجب أن أستبعد فكرة دخول الجيش أو البوليس تماما.

أما الآن فقد أقنعت أبى وضممته إلى صفى وأيقنت أننى سأحقق رغبتى لو نجحت فى الدور الثانى.

وبدأت أستذكر بعزم حديدى، وواصلت المذاكرة أثناء النهار ومعظم الليل، حتى جاء الإمتحان وكانت النتيجة نجاحى فى مواد العلوم بدرجات كبيرة. وعدت لأبى بالنتيجة فرحا... وقلت له لقد حققت وعدى لك فحقق وعدك لىّ.. ولكن أمى برزت على مسرح الأحداث كقوة مناوئة يستحيل مقاومتها..

قالت لى: لن تدخل الجيش أو البوليس إلا على جثتى وبدأت الأزمة. ونجحت أمى فى فرض ارادتها فدخلت الحقوق.

❂ ❂ ❂

الأستاذ مصطفى كامل فوده

كان العام الدراسى فى أوله..

ولم نكن نعرف من هوالأستاذ الذى سيدرس لنا اللغة الفرنسية..

ثم جاءت الحصة ودخل من الباب رجل قصير القامة ونحيل..

قدم إلينا نفسه.

ـ أنا مصطفى كامل فوده.. سأقوم بتدريس اللغة الفرنسية لكم هذا العام..

أحسست داخلى بالدهشة..

معظم أساتذتنا فى المرحلة الثانوية كانوا يدخلون الفصل ويتكلمون فى المقرر دون أن يقدم أحدهم نفسه لنا أو يعرفنا على شخصه. . أدركت أننا أمام أستاذ جديد. . .

ثم عرفنا فيما بعد أنه كان فى فرنسا، أو درس فيها فترة من حياته، وأضافت هذه الفكرة هالة جديدة لشخصية الرجل..

كان فى دروسه مختلفا عن مدرسى هذه اللغة.. كان يشرح الدرس فتحب الدرس لأنه هو الذى يشرحه.. كان فنانا كمدرس.. ولم تكن طريقته فى الشرح هى تكديس المعلومات فى أذهان الطلبة، إنما كان يحيط المعلومة ذاتها بشئ طريف أو يضعها فى إطار يصعب على المرء أن ينساها فيه..

قال لنا فى بداية العام.

- النجاح ليس مهما فى حد ذاته الأهم منه أن نفهم.. ثم جاء أول إمتحان من إمتحاناته.. كان المفروض أن يتم الامتحان فى الفصل أمامه.. ولكنه كتب على السبورة السوداء أسئلة الامتحان وقال لنا «إنقلوا الأسئلة فى أوراقكم».. نقلنا الأسئلة فى أوراقنا.. وتهيأنا للإجابة عليها.

قال لنا: ما الذى تفعلونه.

قلنا: سنجيب على الأسئلة.

قال: لا.. لا.. هذا إمتحان تجيبون عليه فى البيت.. وتحضرون الإجابة يوم السبت..

ملأتنا الدهشة.. قلت فى نفسى إن الفصل كله سوف يغش الإجابة من الكتاب مباشرة..

نظر إلينا الأستاذ فوده وقال:

- أنتم تقولون فى أنفسكم أنكم ستغشون من الكتاب.. أنا لا أنصح بهذا، لأنكم تغشون أنفسكم ولا تغشوننى، لا بأس عندى أن تستعينوا بالكتاب فى الإجابة، المهم أن تفهموا وتحفظوا خلال الإجابة على الأسئلة.. إننى أترك المسألة لضمائركم.. وعلى أى حال، سيكون إمتحان آخر السنة فى لجنة الإمتحان لا فى البيت.. فكروا فى ذلك..

كانت أول مرة يضعنا أحد الأساتذة أمام ضمائرنا.. أدركت أنه يحاول أن يعلمنا الصدق.. والفهم.. وهما قيمتان جوهريتان فى المعرفة أساساً، وبغيرهما تتحول المعرفة إلى تراث يستغله الناس فى الكذب والخداع والوصولية.. غش الفصل كله، وتسلم الأستاذ إجاباتنا جميعا وهى كاملة وصحيحة ومرتبة وأنيقة.. وكان واضحا أن الفصل كله قد لجأ إلى الغش ونقل الكتاب نقلا... قرأ هو الإجابات وإبتسم.. ثم أشار لطالب كانت إجابته نموذجية وقال له:

«إن خطك غير واضح.. قل لىّ إجابة السؤال الثانى..

وقف الطالب كلوح الخشب لا يعرف ما هو السؤال الثانى أصلا.. ولا يعرف إجابته لأنه نقلها من الكتاب نقل مسطرة..

قال الأستاذ فوده: ماذا تفعلون فى إمتحان نهاية السنة، وهو إمتحان سيكون فيه الكتاب بعيدا عن متناول أيديكم.. أحسسنا بالخجل ولكننا ضحكنا..

عاد الأستاذ فوده يقول لنا:

- حتى لو كان الكتاب معكم فى نهاية السنة، ونقلتم الإجابة منه ونجحتم.. ما هى قيمة نجاح يقوم على الغش.. إنكم ستكبرون وتدخلون الجامعة، وستكبرون وتتخرجون من الجامعة، وستعملون بعد ذلك أطباء ومحامين ومهندسين وضباطاً ومدرسين.. تصوروا المجتمع كله يقوم على الغش.. أى مأساة إن حدث هذا.

كان يتكلم بلطف وهو يبتسم.. لم يكن يبدو عليه مظهر الواعظ أو رجل الفضيلة، إنما كان يحدثنا كأنه يكلم نفسه بصوت مسموع.. ونفذ حديثه إلى قلوبنا جميعا..

وعاد هو يمتحننا على أن نجيب على الأسئلة فى البيت.. وفى هذه المرة، تناقص عدد الذين لجأوا إلى الغش..

كانت دروسه متعة، ورغم أنها كانت قليلة ونادرة فقد كانت اللغة الأولى التى ندرسها هى الإنجليزية لا الفرنسية، رغم ذلك بقيت حصصه عالما من السحر الذى يشبه واحة بين صحراء موحشة...

كان الأستاذ مصطفى كامل فوده يؤمن أن المدرسة ليست هى المكان الوحيد للتعليم أو المعرفة، إنما هى أول الطريق للمعرفة وكان رأيه أن وظيفة المدرسة هى تعليم الأولاد والبنات كيف يفكرون بشكل أفضل . . .

قال لنا يوما: إن أى تلميذ منكم يعرف عن حقائق الطبيعة أكثر ألف مرة مما كان يعرفه نيوتن، ولكن المشكلة أن نيوتن كان قادراً على تشغيل عقله بشكل أفضل منكم . . لقد سقطت التفاحة من الشجرة وهو جالس تحت الشجرة . . كان يستطيع أن يأكل التفاحة ثم ينهض عائدا لبيته، ولكنه فكر بذهنه العبقرى فى الأسباب التى دفعت التفاحة إلى السقوط، وإهتدى لقانون الجاذبية . . المهم هو العقل . . هو أسلوب تشغيل العقل . . هو القدرة على التفكير . . هذه مهمة المدرسة أساسا . .

لم يكن أستاذنا فى اللغة الفرنسية رجلا يقتصر دوره على التدريس ونقل المعلومات فحسب . . إنما كان يؤمن بالثقة . . وكان قادراً على نقل ثقته بالآخرين إلى نفوس الآخرين . .

أقول لكم كيف . .

كنت طالبا شقيا يميل إلى اللعب، وهكذا أهملت دروس الفرنسية إلى الحد الذى ضاع منى كتابها دون أن أدرى . . وقبل الامتحان بثلاثة أسابيع سألنى أبى .

ـ أين كتاب الفرنسية.

وإتضح أن الكتاب قد ضاع. . وواجه أبى المأزق بسرعة، كان صديقا للأستاذ مصطفى كامل فوده، فطلب منه إعطائى درسا خصوصيا فى اللغة الفرنسية. .

وبدأ الأستاذ فوده يزورنى فى بيتى. . كان هذا الدرس مجانيا، وكانت معظم الدروس الخصوصية على أيامنا مجانية يقوم لها المدرس أو يؤديها بأجر رمزى بحت. . وفى الدرس الخصوصى الأول قلت للأستاذ فوده بمنتهى الصراحة. .

ـ إننى لم أتابع دروسه بقدر ما تابعت أحاديثه خارج الدرس، وإن الإمتحان بعد أسبوعين، وأنا أشك فى قدرتى على النجاح فى هذه الفترة القصيرة. . نظر إلىَّ الأستاذ فوده وضحك ساخراً وقال بثقة:ـ

ـ أنا لا أعطى درسا لأحد ويرسب. . إنك لست غبيا، بالعكس. . أنت ذكى ولكنك تميل للعب. .

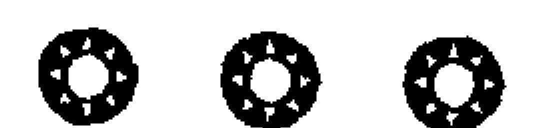
كان واثقا فى نفسه، وفى قدرتى على إجتياز الامتحان. . وبدأ يدرس لى. . ملأنى بالثقة والعزم وخلال أسبوعين إستطعت أن أهضم المقرر وأن أدخل الإمتحان وأحصل فيه على ٣٠ درجة من ٤٠ درجة. . أى أننى نجحت بدرجة جيد جدا. .

ومن المثير للدهشة، أن أحد أصدقائى يومئذ، وهو سمير رزق بقطر ـ رحمه الله ـ كان يمتحن معى، وكان قد درس فى الفرير، وكان يقرأ الفرنسية ويتحدثها بطلاقة، كما كان مغرما بالأدب الفرنسى..

رغم كل هذه المؤهلات حصل هو على ٢٨ درجة من ٤٠ وحصلت أنا على ٣٠ درجة من ٤٠..

قلت له: لا أعرف كيف حدث هذا، ولكن المؤكد أن الإمتحانات ليست دليلاً على قدرة تحصيل الطالب ومعرفته..

كان فضل الأستاذ مصطفى كامل فوده على نفسى - من الناحية الأدبية ـ فضلا غير مباشر، لقد ترجم كتابا للكاتب الفرنسى أنطوان دى سانت إكسوبرى.. وقرأت الكتاب فكان بمثابة نقطة تحوّل فى إتجاه ميولى نحو الأدب..



قمـــــر (١)

عزيزى الأستاذ أحمد بهجت

أنا شابة عمرى ٢٤ عاما، أتفق معك فى حبى الشديد لجميع الحيوانات.. أعطف عليهم بكل مقدرتى على العطاء أو الخدمة، وأشعر وسطهم كأننى خلقت لهم ومعهم.. لن أطيل عليك..

إن خطابى اليوم هو خطاب إنسانة حزينة وحائرة فى آن واحد حزينة لأن قطتى التى مكثت معى ١٥ عاما قد توفيت منذ أيام بسبب التهاب رئوى إنتابها فجأة، وتدهورت صحتها سريعا حتى يوم الوفاة.

ولقد كان هذا اليوم من أتعس أيام حياتى. . لأننى لم أفتقد قطة بل أفتقدت صديقة وإبنة وأختا أيضا (لأننى وحيدة وليس لدى أخوة).

كانت كل شئ فى حياتى، والآن إفتقدها بشدة وأشعر أن

أيامى لم يعد لها طعم بعد أن فقدت قطتى الغالية. . ولكنها إرادة الله. . أما الحيرة فأحس بها لأن لدى عدة أسئلة ليس لها إجابات عندى، وفكرت فيك كشخص يحب الحيوانات، وقرأت عنهم فيمكن إن شاء الله مساعدتى وإشعارى بالراحة ولو قليلا. .

أرجو ألا تهمل خطابى هذا لأننى سأنتظر إجابتك بفارغ الصبر، ولا تعلم كم ستسعد أنسانة نسيت طعم السعادة وأصبحت حياتها عبرات وآلام فقط. . وسأسعد أيضا لمعرفتى بأشياء تؤرقنى وتحيرنى كثيرا. .

أولا ـ هل للحيوانات ـ بالذات القطط والكلاب ـ يوم محدد وساعة محددة للوفاة مثل البنى آدمين؟

ثانيا: من يقبض أرواحهم، هل هو أيضا عزرائيل؟ وإن لم يكن هو فمن الذى يقبضها؟

ثالثا: عندما تخرج أرواحهم هل لديهم برزخ مثلنا أم أين تذهب هذه الأرواح الغالية؟

رابعا واخيرا: لقد ذكر فى القرآن الكريم «وإذا الوحوش حشرت» فهل ستحشر معنا فى يوم الحشر وأرى قطتى مرة ثانية وأعيش معها إلى الأبد. . أم ما هو معنى الآية الكريمة؟

هذه هى أسئلتى وأرجو منك الإجابة عليها لأننى أعلم أنك

تستطيع أن تشعر بآلامى. وشكرا على إهتمامك.

الانسة ن. ح. الاسكندرية.

جاءنى هذا الخطاب فى البريد.. ولقد توقفت بعد قراءته لسببين.. أحدهما عام والثانى شخصى بحت.



(الكلبة قمر)

الأول: شحنة الألم التى يكشف عنها خطاب الآنسة التى فقدت قطتها..

الثانى: إننى شخصيا سألت نفسى أسئلة قريبة من هذه الأسئلة حين ماتت قمر.. وهى كلبة كنت قد تعرفت إليها فى الشارع، ثم ما لبثت المعرفة أن تحولت إلى صداقة عميقة..

ولنبدأ بمحاولة الإجابة على الأسئلة أولا..

١ ـ هل للحيوانات يوم محدد للوفاة مثل أبناء آدم؟

الجواب: نعم لكل أجل كتاب.. ولكل مخلوق ساعة محددة لوفاته ينطبق هذا على البشر كما ينطبق على غيرها من الخلائق.

٢ - من يقبض أرواح الحيوانات.. هل هو عزرائيل عليه السلام؟

الجواب: لا أعرف.. كل ما نعرفه أن الله قد وكل ملائكة الموت لقبض أرواح بنى آدم.. أما بقية الخلائق فأغلب الظن أن هناك ملائكة يقبضون أرواحهم.. من هم هؤلاء الملائكة؟ الله وحده هو الذى يعلم..

٣ ـ هل لدى الحيوانات برزخ تذهب إليه أرواحهم مثلنا؟

الجواب.. لا أعرف.. قياسا على الآدميين ربما يكون لهم برزخ، ولكننى فيما قرأت لم أجد إشارة لذلك.

٤ ـ ذكر فى القرآن قوله تعالى «وإذا الوحوش حشرت» فهل تحشر معنا الحيوانات يوم الحشر؟.

الجواب.. نعم.. وسوف نرى الحيوانات التى أشفقنا عليها وتعاطفنا معها وأحببناها يوم الحشر.. ولن يحرم محب للحيوانات من رؤيتها إذا كان حظه أن يدخل الجنة ذات يوم..

لم أفكر ـ بصراحة ـ فيمن يقبض أرواحها، لعلمى أن الله سبحانه هو الآمر بقبض الأرواح لقوله تعالى: ـ «الله يتوفى الأنفس»

أيضا لم أفكر هل لها برزخ تأوى إليه أرواحها بعد الموت أم لا.. لم يخطر هذا السؤال بذهنى، وإنما كان السؤال الوحيد الذى ثار بعقلى هو التالى: ـ

ـ بعد يوم البعث والقيامة، هل سنرى الذين أحببناهم من الحيوانات؟.

سألت هذا السؤال وقرأت تفسير قوله تعالى «وإذا الوحوش حشرت» وإطمأنت نفسى إلى أننا سنرى من أحببناهم بعد البعث.

ولعل الشرط الوحيد لذلك أن تكون ممن تكرم عليهم رب العالمين بدخول الجنة.. لأن دخول النار يجعل الإنسان فى

حالة من الكرب العظيم الذى ينسى فيه كل شئ بإستثناء مصيبته هو.

أقول للآنسة الفاضلة أن تطمئن لرؤية قطتها.. ولسوف تشهد لها هذه القطة عند الله تعالى، وربما كانت سببا فى دخولها الجنة.

لقد ورد فى الحديث الشريف ما يفيد غفران الله لمن تسقى كلبا، وعذاب الله لمن عذبت قطة وحبستها حتى الموت، فلا هى أطلقتها تأكل من طعام الأرض ولا هى أطعمتها..!

ولقد قرأت لواحد من العارفين بالله يوما كلمات جميلة عن الموت..

قال إن الله سبحانه وتعالى هو أكرم الأكرمين.. وهو أرحم الراحمين.. والكريم إذا أعطى منحة.. لم يأخذها بعد ذلك.. فإذا أخذها كان معنى هذا أنه سيعطى أفضل منها..

الحياة منحة تكرم بها الله على الخلائق، والموت إسترداد لهذه المنحة. والله لا يسترد ما أعطاه إلا إذا كان سيعطى أفضل منه.. وذلك هو الحياة الأبدية. البعث والقيامة..

وأى رقة فى القلب، أو رفق بالحيوان، أو إكرام له أو عطف عليه أو إهتمام بأمره.. أى شئ من هذا كله مسجل فى كتاب ومحسوب عند رب العالمين الكريم الرحيم..

أذكر كيف تعرفت على قمر.. كانت قمر كلبة من كلاب الطريق.. وكانت بيضاء فى مواضع من جسمها صفراء ذهبية فى مواضع أخرى وكانت لها عينان عسليتان ذكيتان..

كنت أصادق بعض كلاب الشارع حين ظهرت هى يوما ورحبت بى بهز ذيلها. . كانت تمد يد الصداقة. .

ومددت يدى ورحت أربت على رأسها فزادت من هز ذيلها. .

قدمت إليها بعض الطعام القليل الذى كنت أقدمه للكلاب فأكلت. . بعد ذلك عرفت سيارتى فكانت تنتظرنى فى مواعيدى فإذا وصلت حضرت هى. . وقفزت فى السيارة وجلست بجوارى كأنها تعلن لجميع الكلاب صاحبها الجديد. .

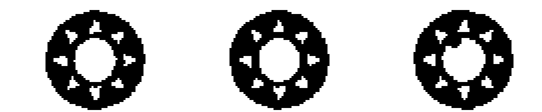
لم أكن أعرف لها إسما، وكنت أدللها بقولى أنها جميلة كالقمر، ثم ما لبثت كلمة قمر أن إنتشرت عنها وراح الصبية والأولاد فى الشارع ينادونها بقمر حتى إلتصق الإسم بها وصار علماً عليها.

وفى مقابل العظم الذى كنت أقدمه إليها، رأت قمر أن من واجبها أن تقوم بحراسة سيارتى. .

كانت إذا وصلت وأغلقت السيارة وصعدت إلى شقتى تصعد هى وتعتلى ظهر السيارة وتنام فوقها.

والويل لمن يقف بجوار السيارة أو يمد يده إليها. . إن قمر كانت تزوم لتنبه إلى أن هذه السيارة ملك لها ولصاحبها. . ومع الوقت لم أعد أغلق أبواب السيارة. .

وقامت قمر بواجبها فى الحراسة كأفضل ما يكون القيام. . ثم جاء يوم. .



كنت معتاداً ان ألتقى بقمر أمام باب العمارة التى أسكنها، ولم تكن تمشى ورائى وأنا أدخل العمارة.. ولا كانت تصعد معى السلالم وأنا أتجه الى شقتى فى الدور الرابع.. كانت قمر كلبة ملتزمة من كلاب السكك وقد أوقفت نفسها على حراسة سيارتى فى الشارع، ثم جاء يوم.. وكسرت فيه قمر هذا الإتفاق الصامت بيننا.. فوجئت بها تدخل ورائى العمارة، وتصعد معى السلالم.. توقفت ونظرت اليها مندهشا كإننى أقول:

على فين العزم..

نظرت الى قمر نظرة بريئة فقلت فى نفسى ـ دعنى أرى ماسيكون. . صعدت الى شقتى فى الدور الرابع، وفتحت الباب ودخلت. . دخلت ورائى قمر. . أغلقت الباب وقلت:

للنظر ماذا سيكون.. لم تكد قمر تدخل الشقة حتى تقدمتنى وبدأت تمارس مهنتها التقليدية فى الحراسة.. المفروض فى الحارس أن يطمئن على أمان الغرف وخلوها من أى عدو.. وهذا مافعلته قمر.

ودخلت كل الغرف وتأكدت من خلوها من أى خطر أو إنسان ودخلت المطبخ والحمام والبلكونة وقطعت البيت كله من أوله إلى آخره وهى تشم الأثاث وتهز ذيلها وتجرى بفرح غامر لم أفهم سر فرحها فى البداية.. ثم أضاء عقلى بفهم السر.. لقد ترقَّت قمر فى سلك الحراسة كانت تحرس سيارتى فى الطريق.. وأنا مسافر، وها هى تقرر أن تحرس شقتى نفسها، وأنا موجود..

كانت قمر سعيدة بهذه الترقية التى جاءتها فى غفلة من الزمان أو بوعى من الزمان.. الله وحده هو العليم.

المهم إن قمر بعد أن إطمأنت على خلو البيت من الخطر، جاءت أخيراً وجلست تحت المكتب حيث كنت أجلس.. وبسطت ذراعيها مثل كلب أهل الكهف ووضعت رأسها بين ذراعيها وإستغرقت فى النوم..

إنهمكت فى القراءة والكتابة ونسيت أمرها تماما.. ثم تذكرتها حين نهضت متجها لغرفة النوم.. نهضت هى حين نهضت فجأة.. وتقدمتنى فى الطريق إلى غرفة النوم. صعدت

إلى فراشى فظلت واقفة حتى إطمأنت، ثم نامت فى مدخل الغرفة عند الباب..

إن باب الغرفة هو مصدر الخطر بالنسبة للنائم فى الغرفة، فلو دخل لص أو مجرم فسوف يدخل من الباب، وهاهى قمر حارستى الجديدة تقوم بتأمين الغرفة وتنام عند بابها.. إبتسمت لها وقلت:ـ

ـ ياست قمر.. ليس فى البيت شيء يستحق السرقة غير الكتب فهل تظنين إن هناك لصوصا للكتب..

قالت قمر بنظره جادة: تأمين المكان من بديهيات الحراسة!

قلت لنفسى: لن أتدخل فى عملها مادامت لاتتدخل فى عملى..

نمت وإستيقظت على صوت صراخ.. كانت الشغالة قد فتحت الباب بمفتاحها ففوجئت بوجود كلبة لم ترها من قبل، وهى تعترضها.. حاولت الشغالة ممارسة أعمالها ولكن قمر أوقفتها فى مكانها بعد أن زامت مرتين بغضب.. وصرخت الشغالة فإستيقظت..

قلت للشغالة: لاتخافى.. الكلبة لاتعض..

وقلت لقمر: هذه هى الشغالة التى تخدمنا معاً وتعد طعامنا.. إنها تبعنا..

فهمت الكلبة ما أقوله وتركت الشغالة تمارس نشاطها اليومى المعتاد فى تنظيف البيت، بل إنها إعتذرت لها عن الرعب الذى سببته لها فى الصباح وهزت ذيلها مرتين لها. . ثم إختفت قمر تماما. .

خرجت حين فتحت الشغالة باب الشقة. . وجدتها تنتظرنى عند السيارة، ثم اختفت بعد ذلك. . ومضيت أُفكر فى سلوكها. . كانت تحرس سيارتى وأنا غائب عن مصر، وها هى تحرس شقتى الآن وأنا فى مصر. . ولقد تم هذا كله دون إتفاق مسبق. . فى اللحظة التى أُعجبت فيها بها وربت على رأسها وقدمت إليها قطعة من الخبز وقطعة من العظام. .

فى اللحظة التى حدث فيها ذلك إرتبطت الكلبة بىّ. . وصارت مسئولة عن حراستى. . يعتقد بعض الناس. من غير محبى الحيوانات ـ إن سر إرتباط الحيوان الأليف بصاحبه إن صاحبه يطعمه. .

وليس هذا صحيحا على إطلاقه. صحيح إن الطعام لون من ألوان الود التى نبديها تجاه الكلاب أو القطط. . ولكن الطعام ـ بوصفه مصلحة للحيوان ـ ليس هو الرباط الوحيد بينه وبين الإنسان.

هناك رابطة الحب. . إن الكلاب تتبع أصحابها ولو كانوا

فقراء لايطعمونها، وأحيانا تموت الكلاب حزنا على أصحابها إذا ماتوا.

... ولقد مات كلب نجيب الريحانى بعد موت صاحبه..

رفض الطعام والشراب وغاص فى بئر الآحزان حتى آخر قطرة فى حياته.. أصبحت قمر تنتظرنى إذا عدت إلى البيت.. وإعتادت أن تمكث فى البيت طيلة الليل.. تسهر إذا سهرت..وتسهر إذا نمت.. وتحرس البيت طوال الليل.. وزارتنى أمى ذات يوم.

كانت قمر كلبة ذكية.. كانت تعرف من طريقة إستقبالى للضيوف هل هذا الضيف مرغوب فيه أم لا.. وكانت ـ تتعامل مع الضيوف طبقا لإحساسى بهم.. رحبت بأمى فرحبت بها قمر.. ثم أقعت عند أقدامها فى هدوء وإستسلام نظرت أمى الى قمر وقالت ـ الكلبة دى حامل

قلت لها: ماظنش.. هى مبألظه بس..

قالت أمى: بكرة تشوف..

لم يكن يبدو على قمر إنها حامل، كانت أميل إلى الإمتلاء والسمنة، أو هكذا ظننت..

وذات يوم.. كانت قمر تجلس على كنبة فى البيت حين

تبولت فوقها وأدرك الشغالة إنزعاج قوى وصرخت فى قمر وجئت على الصراخ وإنزعجت انا الآخر وصرخت فيها وادركت قمر انها فعلت شيئا لا ينبغى فعله..



والدة الأستاذ / أحمد بهجت تجلس فى البلكونه وتحتضن قمر وأبنائها

وهكذا خرجت قمر وإختفت إسبوعا كاملا.. لم أعرف أين ذهبت.. وإنتظرت أن تعود ولكنها إختفت كأن الأرض

إنشقت وابتلعتها وبدأت أحس إننا فرطنا فى إنزعاجنا بسبب ما فعلته وهذا ما يفعله أى طفل دون إرادة منه . .

روادنى إحساسى إننى ظلمت قمر، وكنت قاسيا عليها . . وبدأت أبحث عنها فى المنطقة ولكننى لم أجدها . .

ثم رأيتها ذات يوم تنتظرنى بجوار السيارة.

سألتها: إنتى فين ياقمر.

نظرت إلىّ نظرة إعتذار مشوب بالحب . . قلت لها: ولايهمك ياقمر، فداكى الف كنبة مش كنبة واحدة . .

وعادت تصعد معى إلى الشقة وعادت تمارس هوايتها فى حراسة الشقة وحراستى دون طلب منى . .

ثم جاء يوم . . كانت قمر غير طبيعية . . كانت تهز ذيلها لىّ بمناسبة ودون مناسبة . . وكانت تتمسح فى أقدامى وتنظر إلىّ نظرات حب لايرتبط بمصلحة ما . . فلم أفهم السر فى هذه المعاملة الخاصة إلا فى اليوم التالى . .

دخلت غرفة نومى وصعدت الى الفراش ونمت . . أما قمر فقد ظلت فى مكانها الإستراتيجى عند الباب. وأنا نائم كنت أسمع أنات وآهات.

لم ألق بالا لهذا كله . . وإستيقظت فى الصباح لاجد «قمر» تحتضن فى صدرها ثمانية.كلاب صغيرة . . كنا اثنان فى بداية

الليل، وفى الصباح صار عددنا عشرة أنفس.. تسع كلاب وانا.

كانت الكلاب مغمضة العينين ولكنها كانت تسعى نحو صدر أمها مباشرة كأنها ترى بالف عين وعين.. وقفت أشهد معجزة الميلاد..

إن ميلاد الخلائق معجزة، ولكننا من فرط إنشغالنا بالتوافه لم نعد نتوقف كثيرا عند المعجزات..

كان أحد الكلاب المولودة اسود اللون، وكان هناك كلب آخر وجهه يميل الى اللون البنى الغامق، بينما بقية جسده يميل الى اللون الفاتح مضيت أتأمل إبداع الخالق فى صنعه..

كانت الكلاب مولودة منذ ساعات، ولكنها فيما يبدو قد تعلمت قانونا من قوانين الحياة وهو قانون الصراع، كانوا يتصارعون على الفوز بثدى الأم.. وكان الكلب الاسود أكثرهم جرأة رغم إنه لم يكن قد فتح عينيه بعد..

كان يرضع من أحد أثداء الأم حتى يشبع، ثم يترك الثدى ويحاول أن يزاحم غيره على ثدى آخر للأم، وكان يعرف كيف ينقض وكيف يضرب بالأكتاف وكيف يفوز أخيراً بثدى الأم بعد أن ينحى عنه واحدا من أشقائه..

مضيت أشهد الصراع وأتأمل مدهوشا فى إعجاز الخالق وابداعه ثم تنبهت على سؤال قفز لذهنى..

ـ ماذا أفعل بهذه الكلاب الثمانية التى ولدت فى غرفة نومى. .

وغرفة نومى تقع فى مصر الجديدة، وهذا يعنى إن هذه الكلاب قد أخذت جنسية مصر الجديدة، وأغلب الظن إنهم يتوقعون البقاء فى شقتى، وهذا أمر صعب للغاية. .

قلت لقمر: إسمعى ياقمر.. إنتى معلهش تيجى الشقة لكن الـ ٨ وحوش دول لأ.

قلت هذا وبدأت أحمل الكلاب الصغيرة لأضعها على بسطة السلالم، أخرجت ثلاثة كلاب وعدت أحضر الرابع. . كانت قمر ترقب أفعالى وتنتظرنى حتى أنقل الكلاب خارج الشقة ثم تعود هى لأحضارهم وإدخالهم الشقة. .

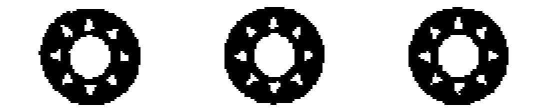
وأيقنت إن الشقة توشك أن تطير من يدى وتؤول للكلاب، وتوقفت أخيراً وقلت لقمر الإسبوع الأولانى بس. . بعده كده لأ.

إتفقنا على هذا ثم لاحظت إنها تؤثر أحد أبنائها من الكلاب بحب خاص. . فهى تلحسه وترضعه وتهتم بشئونه أكثر من أشقائه. . وتعلقت نفسى بهذا الكلب. . وسميته «ماكس». .

ووفت قمر بوعدها. . ولكن بعد إسبوعين لا «إسبوع

واحد» فقد حملت كلابها بعد إسبوعين إلى الشارع، وأصبحنا نلتقى كما كنا نلتقى على العشاء، بعد ذلك كانت تنصرف لإرضاع أطفالها ثم مر الوقت وكبرت الكلاب الثمانية وأصبحت تزفنى وأنا فى الطريق إلى السيارة أو حين أنزل منها..

وبدأنا توزيع ما أستطعنا توزيعه على بعض الأصدقاء الذين عندهم حدائق ويحتاجون الى كلاب للحراسة.. وبقيت قمر ترعانى.. ثم جاء يوم..



قمــــر (٣)

الأمومة فى الحيوان سر عجيب من أسرار الخليقة.. والصراع على الغذاء بين الحيوان سر أعجب..

إن رسول الله ﷺ يحدثنا إن الله خلق الرحمة مائة جزء، فإحتفظ لنفسه بتسعة وتسعين جزءاً وأنزل على الأرض جزءاً واحداً من الرحمة...

ومن هذا الجزء تتعاطف الخلائق حتى ان الدابة ترفع قدمها عن وليدها خشية أن تصيبه..

كنت أحيانا أتأمل «قمر» وهى تُرضع كلابها الثمانية كانت تستلقى على الأرض وتترك ثمانية حلمات هى كل ما فى صدرها من منابع الغذاء لأبنائها..

كان الأولاد يرضعون بشراهة.. وكان فيهم إثنان أو ثلاثة

يرضعون بسرعة أكثر من الآخرين.. فإذا أفرغوا ما فى حلمات الأم من اللبن، إستداروا إلى أخواتهم وهم يرضعون وحاولوا زحزحتهم عن مواضعهم وسلب نصيبهم من اللبن...

إنك ترى الكلب الصغير الغاصب يأتى لشقيقه، ويدس رأسه تحت جسده متجها إلى ثدى الأم، ويعافر الكلب الغاصب حتى يزحزح أخاه عن الثدى ثم يلتقمه هو ويبدأ فى الرضاعة..

إن قصة الصراع بين المخلوقات على الغذاء هى قصة الإنسان والحيوان معا.. وهى سر مدهش من أسرار الخليقة..

إن الكلب الضعيف يكتشف فجأة إن أحداً قد نحاه عن الثدى وطرده منه وهو يتناول غذاءه.. ماذا يفعل.. لقد إكتشف إنه ضعيف.. وإن شقيقه الأقوى قد إغتصب غذاءه.. كيف يتصرف..

أنه يحاول فى البداية أن يستعيد الثدى الذى إلتقمه الغاصب.. ولكنه لايفلح عادة فى ذلك، إذا يستميت الغاصب على الصدر الذى إحتله بقوته. عندئذ يتحول الأضعف إلى من هو أضعف منه.. وتستلقى الآم غير ملقية بالا لكل هذه الصراعات.

أحيانا كنت أتدخل بقيم العدل البشرى فأرفع الجرو الصغير الغاصب عن الثدى وأعيد الضعيف الذى طرد . .

وكان الكلب الصغير الذى وقع عليه سيف العدالة البشرية ينظر إليَّ وفى نظرته كلمات تكاد تقول ـ مالك أنت يا بارد بصراع مجموعة من الكلاب . . إن البقاء للأقوى فى عالمنا . . لا تتدخل وتفسد علينا قانونا من قوانين الحياة . . لم أكن أهتم بنظرات الكلب . .

ولكننى مع الوقت إكتشف إن الأقوى فى عالم الحيوان يشبه الأقوى فى عالم الإتسان . . إذ يتصور أن قوته . . مجرد قوته فى ذاتها دليل على أنه صاحب حق . . الحق فى عالم الحيوان هو القوة . .

إذا كنت أقوى من غيرك صار من حقك أن تسلبه طعامه وأنثاه فيما بعد عندما تكبر الجراء الصغيرة وتتحول إلى كلاب بالغة . . ما الذى تفعله الدول الأقوى فى عالم الإنسان . .

إنهم يستندون إلى القوة ويعتبرونها هى الحق، وبهذه الخديعة يسلك الإنسان مسلك الحيران، رغم أن خالقه كرمه على بقية الخلائق وجعل له السيادة عليهم . . لأنه أرقى منهم .

ومثلما تجد فى الإنسان الشقى والطيب، والمحارب والمسالم، والأسرع والأبطأ . . فكذلك الأمر فى عالم

الكلاب.. إن لكل كلب شخصيته التى تتكون أساسا من قوته أو ضعفه. ومثلما تختلف بصمات أصابع الإنسان ورائحته عن غيره من البشر، كذلك يختلف الكلاب... هناك كلب يتزعم بقية الكلاب فى الشارع. فى البداية يدخل معها فى صراع على الزعامة.. وهو صراع تستخدم فيه الأنياب والمخالب..

بعد الفوز فى هذا الصراع تتبع الكلاب المهزومة الكلب المنتصر ويصير قائدا عليها...

ويظل لواء القيادة معقودا للأقوى حتى يشيخ ويضعف ويزحزحه من هو أقوى منه عن القيادة، مثلما كان هو يزحزح من هو أضعف منه عن الرضاعة..

حيرتنى فكرة الصراع المجبولة عليها الخلائق... وحيرنى الظلم الذى يختلط بهذه الفكرة كما يختلط الماء باللبن.. كان إعتقادى إن «قمر» هى الزعيمة الثانية بعد كلب المانى ضخم من نوع كلاب الرعاة..

وفهمت إن أكثر ما يدل على زعامة الكلاب إن الطعام إذا وضع أو توفر تقدم إليه الكلب القائد فيأكل هو أولا ثم بعد ذلك يأكل الأتباع. والويل لأى تابع لايفهم هذه الحقيقة أو يحاول الخروج عليها، إن الذى يؤدبه شخصيا هو القائد..

وكان الكلب الألمانى «رنجو» هو زعيم الكلاب فى الشارع. وظننت إن قمر تأتى فى المقام الثانى بعده. فهى أصغر منه حجما بكثير، وهى وديعة كما يبدو من تصرفاتها.. وأنيابها جوار أنيابه تبدو متواضعة للغاية، وظلت فكرتى إنه هو القائد حتى وضعت ذات يوم طعاما أمام رنجو وأمام قمر وأمام بعض الكلاب الأخرى من أبناء قمر.. ترددت الكلاب الصغيرة ونظرت إلى الطعام بنهم، وتقدم رنجو وبدأ يأكل، وفوجئت بقمر تهجم عليه وتعضه وتنحيه عن الطعام، وتنحى رنجو رغم قوته وترك لها الطعام تأكل منه ما تشاء.

أدهشنى هذا التصرف حين وقع، ولم أفهم كيف تجرأت قمر على كسر قانون الأقوى.. ثم ذهبت دهشتى حين علمت إن رنجو هو زوج قمر.. وهو الأب لجرائها الصغيرة، وقد ترك لها الطعام من باب الشهامة الزوجية. فهى فى نهاية الأمر سيدة والسيدات يتقدمن الرجال كما يقول المثل الإنجليزى.

عاشت قمر فى حياتى فترة، أصبحت عضوا من الأسرة، نسأل عنها إذا غابت ونفتقدها إذا إختفت.. وخلال هذه الفترة علمت قمر كيف تسلم بيدها اليمنى.. كنت أقول لها «هاتى إيدك» وسلمى يا قمر.. كانت ذكية فلم يستغرق تعليمها السلام وقتا طويلا..

ولا حظت أن لها إبنا تؤثره بحبها أكثر من بقية الأبناء، ولم

أفهم السر فى تفضيلها لهذا الإبن على بقية الأبناء. لم يكن ماكس هو أقوى أبنائها أو أذكاهم، إنما كان متوسط الذكاء وأقرب إلى الشقاوة.. ورغم ذلك كان هو حبة عين أمه..

وذات يوم تعرض كلب مسعور لماكس. وهرعت أمه إلى نجدته وتصارعت مع الكلب المهاجم حتى ألجأته إلى الهرب، ولكنه عضها أكثر من مرة..

وإختفت قمر فترة..

بحثت عنها فى الحدائق التى يحتمل أن تكون فيها فلم أجدها.. وذات يوم كنت أقف فى الشرفة حين شاهدت «قمر» وهى تزحف فى الشارع زحفا.. ناديتها فإلتفتت نصف إلتفاتة ولم تصعد كعادتها جريا، وناديت البواب أن يحملها إلى شقتى..

وحملها البواب فأخذتها منه.. كان نصفها الخلفى شبه مشلول، وكانت تزحف بيديها فقط، وكان فمها نصف مفتوح ولعابها يسيل منه.. وإتصلت بصديق من الأطباء البيطريين فجاء إلى منزلى. كشف عليها وقال:ـ

ـ إنها مريضة بالسعار. لقد عضها كلب مسعور فيما يبدو. ويجب نقلها للمستشفى على الفور. إنها الآن مصابة بالسعار ويمكن أن تعض دون أن تدرى إنها تعض.. وأسرعت بها

إلى مستشفى الحيوان. وهناك تم الكشف عليها وتشخيص مرضها وعزلت فى مكان مغلق بعيداً عن الحيوانات الأخرى..

قال لى الأطباء إن الأمل فى شفائها لايزيد عن صفر.. ورغم ذلك كان يخيل إلى أنها لن تموت..

بعد يومين اثنين ذهبت لزيارتها فقالوا لى إنها ماتت.. قلت للطبيب الذى كان يشرف عليها

- حدثنى عن لحظاتها الأخيرة

قال الطبيب: كانت تفعل شيئا غريبا. كانت تمد يدها كأنها تسلم على أحد.

قلت لنفسى وأنا عائد: يبدو أنها تذكرتنى فى لحظاتها الأخيرة وكانت تمد يدها للسلام. ومضت قمر إلى عالم السلام.

أحزننى موتها لاأنكر. وأثار فى نفسى عديداً من المشاعر لعل أكثرها إيلاما كان موتها وحيدة وغريبة فى مستشفى.. لم يكن حولها أحد من البشر الذين أحبتهم وأحبوها.. سألنى الطبيب: ألم تعض أحداً فى الشارع

قلت له: لا..

قال: هذا غريب، كيف لا تعض وهى مريضة بالسعار..

لم أقل شيئا للطبيب، وتحيل إلىَّ أن قوة الحب فى حياتها كانت مانعا لها من إيذاء أحد ممن أحبتهم.

ولقد كان الشارع يعرفها ويحبها ويدللها ويطعمها. وكانت حارسا عظيما للسيارات فى المنطقة، فلم يعرف أثناء حراستها إن أحداً قد سرق راديو أو جهاز تسجيل من سيارة أو نجح فى أن يفك إطاراً من إطاراتها، كانت تعرف أهل الشارع وتعرف كيف تقوم بواجبها فى حراستهم وحراسة سياراتهم..

حين ماتت قمر فكرت فى الموت.. إن الموت يظل بعيداً عن فكر المرء طالما ظل بعيداً عن رقبته. فإذا إقترب من رقبة أحد من أحبائنا بدأنا نفكر فيه.

على المستوى الفلسفى يبدو الموت لغزاً بلاً حل.. هو تحول من الكينونة إلى العدم.. هو إختفاء من عالم الحركة والفكر والشعور وهو فساد لأجهزة الجسم وصيرورة الجسم نفسه إلى التراب.. وفى هذا المستوى لايمكن قبول فكرة الموت.. ولا هضمها..

أما على المستوى الدينى، فإن الموت دموع تقودك منكسراً إلى الله.. وهو مفاجأة تكشف لك طرفا من قضاء الله ومشيئته.. يعرف المؤمنون إن الحياة أية من آيات رحمة الله، وإن الموت أية من آيات القاهر فوق عباده.. يعرفون أن أنفاس الإنسان أو الحيوان التى تتردد فى صدره هى أنفاس معدودة.

وأن لها أجلا تنتهى عنده. ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها. .

لا حل لطمأنينة القلب سوى الصبر. والإحتساب. . وإدراك إن كأس الموت تطوف على جميع الكائنات. . من أكبرها إلى أصغرها، سواء كانت هذه الكائنات بشراً سوياً أو حيواناً أو نباتاً أو صخوراً أو غير ذلك. .

«كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام»

لماذا نبكى عندما يموت أحد من أحبائنا؟

إن الدموع جزء من رحمة الله التى جعل منها فى الأرض جزءاً وإحتفظ لنفسه سبحانه بتسعة وتسعين جزءاً.

بدا لى البيت ينقص شيئا من غير قمر. .

سمعت خبطاً على الباب. . فتحت وإذا بى أمام ماكس إبن قمر. . دخل البيت ومضى يجرى فيه كما كانت أمه تفعل. .

قلت له وأنا أغالب أحزانى

ـ كانت أمك تحبك وأنا لاأحبك. . ولكننى من أجل عيون قمر سوف أحتفظ بك. .

❂ ❂ ❂

كان ماكس هو الإبن المدلل لقمر..

كان كلبا يضرب لونه إلى اللون الأصفر الذى يقترب من البيج. وكان ممشوق القامة طويلا عاليا فى نفس الوقت.. بحيث أنه لو سار بين الكلاب كان أطول منهم قامة، وبالتالى كان مميزاً عن بقية الكلاب..

قلت له حين قررت الأحتفاظ به ـ إسمع ياماكس. . أنا لا أحبك ولم أكن أنوى أن أحتفظ بك، لولا إنك كنت مدللا عند أمك، وكان لأمك عندى خاطر كبير. . هز ذيله فلم أعرف هل هزّه إحتجاجاً أم هزه سروراً.

عدت أقول له: أنت شقى. . ولاتكف عن الحركة طوال الوقت وأنا رجل طعن فى السن. وباتت الشقاوة تزعجنى. . هل أنت مستعد للألتزام بأسباب الأدب؟

تمطع الكلب ثم رقد فى مكانه وكأنه يقول لى : ـ نعم

أرضاني هذا وجلست أكتب. . بعد لحظات نظرت حيث كان الكلب فلم أجده. . نظرت الى الشرفة فرأيته يقف فيها وقد ثنى أذنيه إلى والأمام وقف وكأن على رأسه الطير.

كان يتأمل الشارع ويتأكد من شيء ما لست أدريه. . بعد ثوان قليلة دخل ماكس وإتجه نحو باب البيت ووقف. كان يريد أن يخرج. . فتحت له الباب فإندفع منه عدواً.

أغلقت الباب وعدت إلى الشرفة. . ونظرت إلى الشارع خرج ماكس من البيت وتوقف قليلا. . توقف دقائق ثم إندفع نحو سيارتى ووقف ينبح. .

خرج من تحت السيارة كلب هزيل أبيض اللون، وأنشأ هذا الكلب يجرى كأن شياطين الجحيم يطاردونه. . قفز ماكس من الأرض إلى حقيبة السيارة، ثم قفز من حقيبة السيارة إلى ظهرها، وهناك جلس على ظهرها بعد أن توقف عن النباح. ومالبث أن بسط ذراعيه أمامه ووضع رأسه بينهما وأغمض عينيه. .

تأملته وإنصرف ذهنى لكلب أهل الكهف. . لقد كان كلبا من كلاب الرعاة. كان كلبا من كلاب الحراسة. . ومن هنا فقد ترك صاحبه يدخل الكهف مع أصدقائه المؤمنين الذين خرجوا

خوفا على دينهم. . وجلس هو على باب الكهف. جلس يحرس. .

إن نوم الكلاب خفيف. . لقد قيل إن النمر ينام بعين مفتوحة وعين مغلقة، وقيل هذا عن الذئاب، ولكن الأصح إن هذا يصدق على الكلاب. .

العبارة مجازية، وليست تعنى إن الكلب يغمض عيناً ويفتح عيناً، ولكنها تعنى إنه يغمض عينيه معاً، ولكنه يفتحهما ـ ليس عند حدوث صوت ـ ولكن عند ظهور رائحة. . أى عدو يقترب من الكهف، سيحمل الهواء رائحته قبل أن يصل إلى الكهف ويشكل خطراً على الراقدين فيه. . هذا الهواء يصل إلى الكلب ومعه رائحة الكائن العدو أو الكائن الغريب.

هنا يفتح الكلب عينيه دون أن يتحرك من موضعه، ويصغى بأذنيه مثلما شم رائحة العدو بأنفه. . تم ينهض الكلب دون صوت ويتجه نحو مصدر الرائحة ويقف. . مستعداً للقتال حتى النفس الأخير من أجل صاحبه. .

ساءلت نفسى كيف عرف ماكس إن هناك كلبا صغيراً يلتمس النوم تحت سيارتى؟ لقد أنبأته الرائحة. .

إن الكلاب تستطيع أن تميز أربعين نوعا من أنواع الروائح، وحين يتشمم الكلب طريقا أو حديقة فإنه يقرأ من خلال

إستنشاقه عشرات الأخبار، ويستطيع أن يعرف من الكلاب التى مرت من هنا.. ومن الأغراب الذين عبروا هذا الطريق.. وهل هناك خطر ما أم إن الجو آمن والموقف تحت السيطرة...

كان ماكس ينام فوق ظهر سيارتى عادة.. وأحيانا كان يترك مهمة الحراسة لكلاب تتبعه فى الشارع.. ولكنه كان مستعداً دائما لأداء واجبه فى الحراسة.. وأحيانا كان ينام فى شرفة البيت كما كانت أمه قمر تفضل وكان إذا جاء الشتاء عذبنا طويلا.. أقول لكم لماذا؟

كنت أغلق الشرفة فى الشتاء بسبب البرد، وكان هو يقف أمامها ويخربش فيها بأظافره فأفتحها له.. عندئذ كان ينام فى الشرفة.. كنت أغلق الشرفة وأعود الى مكتبى للعمل.

لاتمر دقائق معدودة حتى أسمع خربشة فى شيش الشرفة، وأنهض فأفتح له الباب ويلفحنى البرد الشتائى وأقول له.

ـ ياماكس.. إنت متردد مثل هاملت ولاتستطيع البقاء على حال.. هل ستبقى فى الشرفة أم تخرج منها؟

لم يكن يجيب، ولكنه كان يقهرنا على فتح الشرفة وإغلاقها عشرات المرات كل ليلة..

وإغتظت منه فى ليلة من ليالى شهر طوبة الثقيل البرد، فلم

أفتح الشرفة.. تركته فيها حتى الصباح.. وفى الصباح فتحت الشرفة وفوجئت إن ماكس أكل جزءاً من شيش الشرفة..

مضيت أتامل أثار إحتجاجه على إغلاق الشرفة ورحت أسائل نفسى كيف يأكل الكلب الخشب.. نعرف أن الكلاب مولعة بالعظام، لكن أحداً لم يحدثنا أنها قادرة على التهام الخشب.. كان ماكس شقيا كما قلت.. وكانت له أفعال عجيبة لم أفهمها أبدا..

فكرت ذات يوم أن أشترى له طوقا من النوع الطبى الذى يمنع الحشرات من الإقتراب منه.. سألت عن الطوق فى مصر فلم أجده، وأوصيت صديقا أن يشتريه لى من الخارج..

وإشتراه الصديق وعاد به.. وعدت بالطوق إلى البيت وإستدعيت ماكس لكى يرتديه..

وقفت فى غرفة واسعة هى غرفة الجلوس، وفى نهاية هذه الغرفة باب زجاجى كبير.. كان الباب الزجاجى مغلقا.. وأقبل ماكس وهو يهز ذيلة بفرح وأخرجت الطوق من علبته وحاولت وضعه على رقبة ماكس.. لم يكد ماكس يحس بالطوق على رقبته حتى أصابه جنون مفاجىء.. إنفلت عائدا يريد الهرب..

وقفز قفزة هائلة مخترقا الباب الزجاجى، وإنهار الزجاج

وسقط على الأرض وعاد ماكس يعدو حتى وصل إلى نهاية البيت.. كانت قفزة ماكس وإختراقه للباب الزجاجى شيئا لايمكن رؤيته إلا فى أفلام السينما، حين يقفز الان ديلون أو بلموندو من خلال باب زجاجى فجأة..

فى البداية وقفت أتأمل الباب المحطم والزجاج المتناثر على الأرض وداخلنى رعب شديد.. قلت لنفسى.

- لاريب أن ماكس قد تمزق جسده من هذه القفزة.. ولاريب إن الدماء تسيل منه الآن..

وأسرعت نحو نهاية البيت لأرى ماذا حدث له.. كان واقفا يهز ذيله دون أن يصيبه خدش واحد.. ملأتنى الدهشة وأنستنى فرحة نجاته أن الزجاج قد تحطم وصارت غرفة الجلوس غرفة بلا باب.

لم أفهم السر فى كراهيته لهذا الطوق، ثم عرفت. إن هذا الطوق يحمل روائح كيميائية تقضى على الحشرات، وهى رائحة لايحبها الكلب.. ومن هنا كان نفوره منها وهربه.. لم أيأس، وأقنعت ماكس بعد فترة أن إرتداءه الطوق لازم لصحته مثلما هو مهم لسلامتنا نحن من الحشرات.. أخيراً إرتدى الطوق وخرج به.. ثم عاد بعد ساعات بغير الطوق، كان هذا الطوق غالى الثمن.. ولم يكن متوفراً فى مصر، وأدركت أن

أحداً من أصحاب الكلاب فى المنطقة قد نزع الطوق عن رقبة ماكس وألبسه لكلبه . .

قلت لماكس: أين ذهب الطوق.

لم يقل شيئا ولكنه نكس رأسه.

قلت له: أنت لست كلبا حقيقيا، لو كنت كذلك لما تركت أحداً يسرق الطوق من رقبتك والمفروض أنك حارس. . لم يلتفت كثيرا لما أقوله . . ويبدو أن رائحة الطوق لم تعجبه فترك أحدا يسرقه، وربما يكون هو قد ساهم فى خلع الطوق والخلاص منه بنفسه . . لست أعرف كيف فعل ذلك كما لا أعرف كيف أكل نصف متر من خشب الشيش فى البلكونه . .

رغم سيئاته كان ماكس كلبا غير عادى . . كان شقيا ولكنه خفيف الدم، وقد إتخذ مقراً لقيادته فى شرفة منزلنا . . أما مدى حراسته فكان الشارع الذى نسكن فيه، وشارعان بعده، وشارعان قبله . . وكان يزرع الشارع من أوله إلى آخره، وكان يعرف كل سكان الشارع بأطفاله ورجاله ونسائه.

كان له أصدقاء من أطفال الشارع، معظمهم كانوا أصدقاءه، بإستثناء الذين يخافون أساساً من الكلاب ولايحبون الإقتراب منهم، وهؤلاء كان ماكس يتجنبهم . . أما غيرهم من الأطفال حتى الصغار فكانوا يُرَبّتون على رأسه وينادونه بإسمه،

ويعطونه الكرة التى يلعبون بها أحيانا ليلعب بها أو يشركونه معهم فى اللعب..

وأثناء حياته لم نسمع عن سرقة فى الشارع كله، ولافى الشوارع المجاورة.

ثم جاء يوم.. وسافرت فى مهمة إلى الخارج.. بعد عشرة أيام عدة إلى مصر فلم أجد ماكس.. ولا وجدت بقية الكلاب التى كانت تسير وراءه بإنتظام..

قلت لنفسى لعله فى ·مهمة هو الآخر وسيعود منها، ثم تلقيت تليفونا من سيدة لا أعرفها فى الشارع.

قالت: لقد قتلوا الكلاب فى الشارع منذ أسبوع واحد، وقد قتلت كلاب كثيرة من بينها كلبى وكلبك.. تلك كانت نهاية ماكس..

لقد صرعته رصاصه من الحراسة البشرية، بعد موته خلا الشارع للصوص البشر الذين يتسلقون مواسير المياه ويسرقون الشقق فى جنح الظلام دون خوف من نباح كلب أو نداء شرطى.. وعرفت قدر ماكس بعد أن مات...

❂ ❂ ❂

نجيب محفوظ (١)

في الستينيات كنت عائداً من رحلة أدبية لأوربا، شملت زيادرة إنجلترا وفرنسا وألمانيا واليونان، وقد مكثت في هذه الرحلة شهرين أطوف بالمعارض وأحضر المسرحيات وأقابل الأدباء وأجرى معهم الاحاديث.

وعدت للأهرام لأفاجأ بتغيير جذرى فى القسم الأدبى.. لقد ضم الأستاذ هيكل إلى عضوية القسم ثلاثة من الأدباء والمفكرين الكبار، هم توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وحسين فوزى..

وفى إجتماع أهرام الجمعة، الذى كان يرأسه الأستاذ محمد حسنين هيكل شاهدت نجيب محفوظ للمرة الأولى..

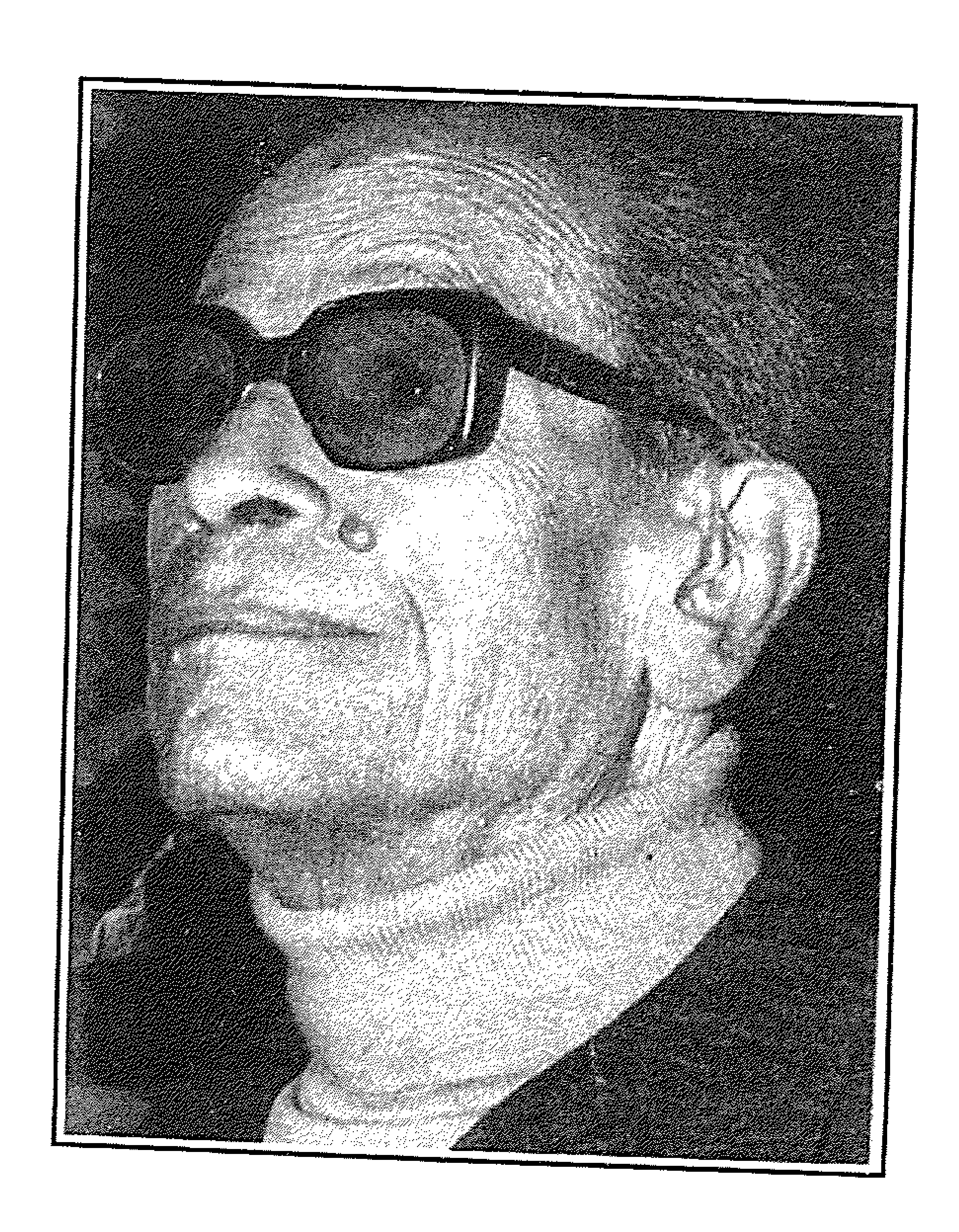
كان يجلس فى كرسيه جوار توفيق الحكيم ود. حسين

فوزى. ولم يكن ظاهراً حتى إننى مضيت أبحث عنه بنظرى قبل أن أعثر عليه. كان صامتاً لايتكلم إلا إذا دُعى للكلام، ولايقول رأيا إلا إذا سُئل عن رأيه، وكان حديثه موجزاً للغاية. . وبدا لىّ تواضعه متناقضا مع صورته فى ذهنى. كنت قد قرأت معظم أعماله الأدبية، وكنت أراه يطاول بقامته قامة بلزاك فى الأدب الفرنسى وجوجول فى الأدب الروسى، وكان إحساسى بأدبه أنه أدب مغرق فى المحلية، وبالتالى فهو مرشح للعالمية. ورحت أطيل النظر إليه وهو جالس، وأتخيل ذهنه وكيف يموج بكل هذه الشخصيات التى يختارها من الواقع ويكملها بعد ذلك بالإضافة الفنية. . كان نجيب محفوظ يجلس صامتا معظم الوقت، كانت هذه جلسته فى إجتماع الأهرام أو فى المقهى. . كان صمته من نوع لايعرفه سوى الأدباء والروائيين.

إن الإنسان العادى منا ينظر حوله نظرة عامة، لأتفطن الى التفاصيل والجزئيات الدقيقة، وربما تكلم الواحد منا أكثر مما يسمع، إن المرء يستهويه صوته أكثر مما تستهويه أصوات الآخرين.

أما الروائى أو الأديب فأنه ينظر نظرة تتجاوز الشكل الخارجى إلى مميزات الشخصية، وعاداتها، وسلوكها، وأسلوبها فى الفعل أو ردود الفعل.

إن عقل الأديب يشبه الكاميرا التى تلتقط أدق التفصيلات، وهذه هى المرحلة الأولى فى العمل الأدبى.. التقاط صورة للحياة كما هى.. بعد ذلك تبدأ المرحلة الثانية، وهى تحويل صورة الواقع الى ابداع فنى..



الأستاذ / نجيب محفوظ

إن الواقع يختلف عن الفن.. إن الفن هو الواقع مضافا اليه خبرات الأديب وموهبته وثقافته.. والناتج من هذا كل ينفصل عن الواقع، تماما مثلما يحدث للنحله حين تأخذ رحيق الأزهار.. إنها لاتقدم هذا الرحيق للناس، إنما تصنع منه العسل.. هذا العسل هو العمل الفنى الذى جاء أساسا من واقع الحياة الطبيعية، ولكنه تجاوز الرحيق وصار شيئا جديداً هو العسل...

تقترب نظرة الأديب من نظرة الصحفى ورجل المباحث فى أنها تبحث عن تفصيلات فى الشخصية، وتحاول النفاذ من خلال الشكل الخارجى الى المضمون الحقيقى الذى لانعلم هل يخفيه الشكل أم يؤكده..

وتبتعد نظرة الأديب عن نظرة الصحفى، ورجل المباحث فى أنها لاتكتفى بما يكتفى به هذان الاثنان من معرفة الحقيقة، إنما تزيد عنهما فى أنها تصنع من الحقيقة شيئاً عاماً.. وباقياً.. ويمكن الرجوع إليه فى أى مكان أو زمان..

لم أستطع أن أفهم الكثير عن نجيب محفوظ فى البداية، لقد كان رجلا صامتا مهذبا يشبه موظفا مصريا من النوع الذى لايتصل بالجمهور وأن كان يتأمل الجمهور عن بعد كاف يسمح له بالكتابه عنه فيما بعد.. ثم تركزت العلاقات بيننا على مستوى العمل، فقد كنت مسئولا عن صفحات أهرام الجمعة.

وقد إستدعانى الأستاذ هيكل ذات يوم وسلمنى مظروفاً كبيراً مغلقاً وقال لى :ـ

ـ هذه هى رواية نجيب محفوظ التى سيبدأ الأهرام فى نشرها تباعا، وعليك أن تقرأ الرواية وتقوم بتقطيعها على أسابيع، وتحدد نهايات الفصول، وعليك أيضا تلخيص ما ينشر منها بعد ذلك . . .

ورغم مشقة المهمة، إلا أنها أعطتنى إحساسا بالزهو، إن معنى هذا إننى ساقرأ روايات نجيب محفوظ قبل أن يقرأها الجمهور، وسوف أستمتع بقراءتها كاملة بينما يقرأها القراء مسلسلة ومتتالية على أمتداد أسابيع أو أيام . .

أسعدتنى المهمة الجديدة التى القيت على عاتقى وبدأت أقرأ، وأقوم باختيار موقف يصلح أن يكون نهاية للفصل. وكنت أكتب ملخصا لما نشر كل أسبوع، وأعتقد أننى حاولت وأنا أكتب هذه الملخصات أن أرفعها لمستوى العمل الأصلى لنجيب محفوظ، ولم يكن هذا بالأمر السهل.

إن أسلوب نجيب محفوظ هو أسلوب صعب رغم سهولة قراءته، وفيه عبق قديم هو الجذور المتصلة بالماضى مثلما إن فيه أغصانا توشك أن تورق غداً فهى ابنة الغد.

إن الماضى والحاضر والمستقبل يلتحمون معا فى ضفائر مجدولة فى أسلوب نجيب محفوظ، إلى جوار هذه اللغة الشاعرية التى تقترب أحيانا كثيرة من الصوفية، وتبتعد أحيانا أخرى عنها طبقا لمتقضيات الحال والمقام.

وقد رضى نحيب محفوظ عن تلخيص لرواياته وقال لى يوما..

ـ أنت تكتب شعراً فى الملخص.. إننى أشكرك

قلت له رداً على مجاملته ـ إننى أحاول الأرتفاع بأسلوبى لكى لايبدو غريبا عن أسلوبك. ولا أظن أننى نجحت.. إننى مستمر على المحاوله ولكننى لم أنجح بعد.

ومع الأيام توثقت العلاقة بينى وبين نجيب محفوظ، ولكنها ظلت فى جوهرها من جانبى علاقة حب بين قارىء يتذوق وكاتب يكتب..

فى بداية الستينات قرأت رواية مسرحية لبرتولد برخت، وكان أإسمها «أوبرا الثلاث بنسات».

وفى هذه الرواية كان برخت قد إخترع شخصية رجل يصنع العاهات ويوزعها على الأولاد ليمارسوا بها التسول..

وكان نجيب محفوظ قد إبتكر هو الآخر شخصية زيطه صانع العاهات. وسألت نجيب محفوظ يوما: هل قرأت «أوبرا

الثلاث بنسات» قال: لا قلت له: إن فيها شخصية تشبه شخصية زيطة.

قال: لعله توارد خواطر..

وأحسب أنه كان كذلك لأن الأدب الألمانى لم يكن يصل إلينا عن طريق الترجمة مثلما وصل الأدب الفرنسى أو الروسى.

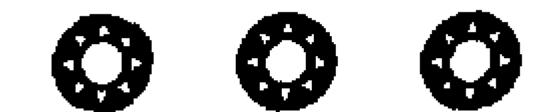
لاحظت فى أدب نجيب محفوظ ملاحظة أخرى. كنت قد شاهدت فى رحلتى لأوربا مسرحية «فى إنتظار جودو» ولاحظت فى مسرح العبث عموما أن هناك موقف إنتظار فى الأدب الغربى، وهو إنتظار لفكرة المطلق، وهى فكرة لاتجىء أبداً..

إن أبطال مسرحية «فى إنتظار جودو» ينتظرون طوال المسرحية قدوم شخصية لاتظهر أبداً، ويسدل الستار على المسرحية دون أن يحضر أحد..

فى نفس هذا الوقت الذى كان الأدب الغربى فيه ينتظر فكرة مطلقة، كان الأدب العربى ممثلا فى نجيب محفوظ يغلب عليه موقف البحث عن المطلق، وهو موقف أكثر إيجابية من إنتظار المطلق.. وحدثت نجيب محفوظ فى هذه الفكرة فقال أنها لم تخطر بباله قبل ذلك..

إن الكاتب الروائى الموهوب عادة يضع القواعد التى يعكف عليها النقاد والمحللون ويكتشفون منها مالم يخطر أصلا ببال الكاتب، مثلما وضع ديستويفسكى أصول علم النفس الجنائى فى روايته «الجريمة والعقاب». . .

ومع الوقت زادت معرفتى بنجيب محفوظ وزاد ـ تقديرى له. .



أشتد إعجابى بنجيب محفوظ كلما إقتربت منه..

هناك شخصيات تخلو من الموهبة ولكنها لا تخلو من الغرور.. وهناك شخصيات موهوبة ومتواضعة وجميلة.. ولقد كانت شخصية نجيب محفوظ متواضعة رغم موهبته. كان الثناء عليه يحرجه..

وكان إمتداح أدبه يحرجه بنفس القدر فلا يعرف ماذا يفعل غير أن يبتسم إبتسامة لطيفة يحاول بها إخفاء خجله.. أما نقد رواياته فكان شيئا يستمع إليه ويصغى جيدا، ولم يكن يدافع أبداً عن عمله إذا وجهت إليه سهم النقد..

ويوما بعد يوم. . تسلل أدبه إلى الصفوة فالجمهور. . كان

يكتب بدأب.. وإستمرار.. متنقلا من حى إلى حى، ومن شخصية إلى شخصية أخرى، ومن موضوع لموضوع آخر.. وبدأت ورواياته تشيع بين الصفوة أولا.. ثم إنتقلت بعد ذلك إلى الجماهير الواسعة..

كنت مسافرا فى الصعيد، بعث الأهرام بمجموعة من محرريه لتغطية الانتخابات فى محافظات الصعيد. كان زميلى فى الرحلة عبد الوهاب مطاوع، وكنا نقوم طوال النهار بتحقيقات صحفية ولقاءات مع المرشحين والناخبين.. ونعود آخر النهار إلى فندق من فنادق الصعيد، وهو فندق نصف نجمة.. أو ربع نجمة. كان الفندق بسيطا فقيرا كالصعيد نفسه، وكان النور ينقطع أحيانا فإذا لم ينقطع هبط إلى درجة يصبح فيها ظلا لنور أكثر مما هو نور حقيقى.

كنا فى الستينيات، وكان الصعيد كله يعيش بعيداً عن زاوية الرؤية والإهتمام، وإن كان السد العالى قد جذب إليه إهتماماً خاصاً، أما الفندق الذى كنا ننزل فيه فكان بارداً رغم وجود الأغطية، كما كان مقفرا رغم وجود سكان.

كانت غرفتنا كبيرة وباردة.. وإخترت فراشى جوار النافذة حتى يوقظنى ضوء النهار إذا جاء.. أما عبد الوهاب مطاوع فقد إختار فراشا فى نهاية الغرفة ووضع حقيبته جواره وأخرج منها ثلاثة كتب عاملها بإحترام شديد، ثم صعد إلى الفراش

وأمسك الكتاب الأول وفتحه وبدأ يقرأ.. كنت أغالب البرد في فراشي فسألته

ـ ماذا تقرأ

قال : نجيب محفوظ..

أدهشني إتجاهه للقراءة في هذه الظروف حيث كان النور الكهربائي منخفضا إلى الحد الذي يشبه فيه الشمعة.

تحدثنا قليلا عن نجيب محفوظ وإنطوت الليلة، وحين عدت إلى القاهرة حدثت نجيب محفوظ عن عبد الوهاب مطاوع وعرفتهما ببعض.. ورغم توثق المعرفة مع نجيب محفوظ ظللنا ـ عبد الوهاب وأنا ـ داخل دائرة جوهرها هو الحب بين قراء معجبين.. وكاتب يكتب..

لم تكن الموهبة وحدها هي التي تلفت إنتباهنا لنجيب محفوظ. لا أحد يماري في موهبته، ولكن أغرب ما كان في موهبته أنها لم تفسده كما يقع كثيراً لبعض الكتاب والفنانين.

إن إحساس المرء أنه موهوب يجعله أحيانا يضع نفسه فوق القانون ويتصور انه مادام موهوبا فإن من حقه الا يحاكم طبقا لقوانين العاديين من الناس. كما إن من حقه أن يخرج على قانون البشر، بالغرور أو الإستعلاء الداخلي أو بأي تصرف يشير مجرد إشارة إلى أنه صنع من طينة تختلف عن طينة البشر.

كان نجيب محفوظ أبعد ما يكون عن الغرور رغم موهبته، كما أنه كان أقرب الناس إلى التواضع مع موهبته.

حين فاز بجائزة نوبل سئل سؤالا تقليديا للغاية..

ـ ما هو إحساسك بالفوز؟

كان جوابه مفاجأة فقد قال أنه أحس بالدهشة، فقد كان فى مصر من يستحقها قبله مثل توفيق الحكيم والعقاد وطه حسين.. وفى نفس الوقت كان فى مصر كاتب موهوب آخر يحلم بالجائزة ويظن نفسه أحق بها.. وقد وجه هذا الكاتب لنجيب محفوظ سهاما كثيرة، وكان رد نجيب محفوظ على هذه السهام هو الإبتسام، ومضى يقول كلمات تعتبر بمثابة تهدئة للكاتب الآخر.. كان يواسيه بصدق، وكان الآخر يهاجم بعنف.

كثيرا ما سألت نفسى عن قضية الكاتب وسلوكه، إن من النادر أن تعثر على كاتب يدعو للخير وهو يسير على الخير كما يدعو، لقد حدثنا الله سبحانه وتعالى أن الشعراء يقولون مالا يفعلون.

هذه المساحة بين القول والفعل لم تكن فى أدب نجيب محفوظ ولا أخلاقه. كان يكتب بصدق، وكان فى حياته اليومية إنسانا صادقاً وحريصاً على مشاعر الأخرين. أما أبطاله فكانوا هم البشر فى كل زمان ومكان، بنزوعهم وإندفاعهم

نحو دمار يحققونه لأنفسهم أو تصيبهم به المقادير كجزاء عادل.

وقد إختلف النقاد فى نجيب محفوظ كما إختلف الناس فى النظرة إلى البحر.. إن البحر عند الطفل هو قصر الرمال الذى يبنيه على الشاطئ. أما البحر عند الصياد فسطح لامع ساكن ينطوى على السمك أما البحر عند الغواص فهو هذه الجواهر التى يمتلئ بها القاع وإن كان الطريق إليها محفوفا بأخطار أبسطها الموت. أما البحر عند الشاعر فهو هذا اللون الأزرق الذى ينبض بتجربة يوشك أن يكتشف فيها مالم يسبق إكتشافه..

قال بعض النقاد أن أفضل أعماله الروائية هى رواية «اللص والكلاب» وكان من أصحاب هذا الرأى د. رشاد رشدى.. ورأى البعض أن قمة أعماله هى الثلاثية، وذهب البعض إلى القول بأن رواياته الأخيرة أفضل من رواياته القديمة بحكم النضج الفنى والتجربة.

ورغم إختلافهم على أدبه، إلا أنهم إتفقوا على أن نجيب محفوظ ليس مجرد كاتب روائى يحكى لنا مجموعة من الأحداث فحسب، وإنما هو بنفس القدر فيلسوف وصوفى.

ومن العجيب أن يجتمع داخل نجيب محفوظ هذا المزيج المتناقض، فقد وقفت الفلسفة عادة ضد الصوفية، كما نظر

الصوفية الى الفلسفة والفلاسفة نظرة عدائية، وكان مبعث العداء بين الجماعتين أن إحداهما تجعل العقل هاديها فى دروب الحياة والتأمل، أما الأخرى فكانت ترى أن المعرفة لا تقتصر على العقل وأنما تجئ معرفة القلوب أولا. .

أما نجيب محفوظ فقد نجح فى أن يروض هذين الجانبين داخله وأن يقنعهما بالسلام. كان يرطب جفاف الفلسفة بالتصوف، وكان طريقه أحيانا إلى التصوف أسئلة عقل حائر لا يتوقف عن التساؤل. .

فى دراسته القيمة التى أعدها رشيد العنانى الأستاذ المشارك لمادة الأدب العربى فى جامعة إكستر البريطانية، يحلل الباحث إنشغال أبطال الكاتب بالزمن والذاكرة والموت والقدر والمصادفة وبالله والعقل والعمل. والكتاب باللغة الانجليزية وهو يحمل إسم «البحث عن المعنى». ويكشف لنا الكتاب موقف نجيب محفوظ من كثير من الأشياء. . كالزمن مثلا والقدر.

الزمن عند نجيب محفوظ هو أشرس أعداء الإنسان، فهو الذى يأتى بالتحولات والتقلبات، وهو مغير الحظوظ والمصائر، وهو القاضى على اليفاعة والنضارة والمسرة وهو جالب المرض والشيخوخة والموت، ولكنه يفعل هذا كله متلصصا ونحن عنه غافلون. . ومن هنا يقول الشيخ عبد ربه. . يحق للزمن أن يتصور أنه أقوى من أى قوة مدمرة. إذ يحقق أهدافه دون أن

يسمع له صوت. والزمان خائن لأنه دائم التحول. أما الزمان والمكان فلا ثبات لهما، وأما الشوق فلا يورث إلا الحزن، غير إن نجيب محفوظ يعى تمام الوعى إن الزمن بإنصرامه يحقق الأشياء أيضا قبل أن يدمرها، فهو وإن كان فى المحك الأخير قوة دمار، فإنه هو السبيل الوحيد للبناء وتحقيق الذات والأشياء.. ومن هنا تجئ العلاقة بين البشر والزمن علاقة تناقض لا مهرب منها..

يقول نجيب محفوظ فى خاطرة من خواطره.

«دائما هو قريب منى.. لايبرح بصرى أو خيالى بريق نظراته الهادئة القوية من وجه محايد، فلا يشاركنى حزنا أو فرحا، ومن حين لآخر ينظر فى ساعته موحيا إلىَّ أن أفعل مثله.

أضيق به أحيانا وكان إن غاب ساعة إبتلانى الضياع.. جميع مالقيت فى حياتى من تعب أو راحة من صنعه، وهو الذى جعلنى أتوق إلى حياة لاتوجد بها ساعة تدق».

ولا يصعب علينا أن ندرك أن التوقان إلى حياة ليس بها ساعة تدق إنما هو الشوق البشرى الحميم إلى حياة ليس بها زمن.. أى ليس بها موت.. كيف ينظر كاتبنا إلى الموت؟

يرى نجيب محفوظ أن الموت ليس شراً خالصاً، وانما هو صديق يندر أن نرحب به..

يقول نجيب محفوظ «طالعنى وجهه بوضوح ومن قريب وبقوة نفاذة وهمس فى أذنى : تذكرنى لتعرفنى حين ألقاك».

أيضا يعبر نجيب محفوظ بهذا الحوار الغامض عن قضية الموت: ـ قلت له بخشوع وعيناى لا تفارقان طلعته.

لم أر أحداً فى مثل بهائك من قبل..

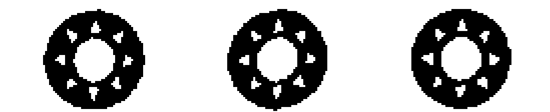
قال باسما: الفضل لله رب العالمين..

قلت : أريد أن أعرف من تكون يا سيدى.

قال بهدوء وكأنه يتذكر : أنا الذى كان يوقظك من النوم قبل شروق الشمس، أنا الذى نصرتك على الكسل فإنطلقت مع العمل.. فكرت بعمق فيما قال .. وإستمر هو: أنا الذى أغراك بحب المعرفة، (هتفت نعم) وإستطرد يقول: وجمال الوجود.. أنا الذى أرشدتك إلى منابعه..

قلت له : إنى مدين لك إلى الأبد.

وساد صمت متوتر.. وشعرت أنه جاء يطالبنى بشئ.. قلت له: أنا طوع أمرك. فقال بهدوء شديد : جئت لأضع فوق عملى نقطة الكمال..



علي حمدي الجمال

🖎 في الخمسينات من هذا القرن.. كنت أتصور نفسي كاتبا للقصة القصيرة.. وكنت يومئذ معجبا أشد الأعجاب بأنطون بافلوفتش تشيخوف.. وكنت أقرأ له، كما كنت أكتب على ضوء وهجه الروحي في القصص..

ثم خطر لي يوما أن أنشر ما أكتب بعد أن أغلقت مجلة قصتي التي كنت أنشر فيها لأسباب مادية..

قلت لنفسي : أعرض الأمر على كبير عائلتنا وكان خالي محمد على رشدي، وزير العدل الأسبق والمستشار بالنقص السابق، والمحامي بعد ذلك.

كنت أحب خالي وأحترمه وأعتبره أبا ثانيا لي، وهكذا جمعت أطراف شجاعتي يوما وقلت له.

ـ يا خالى.. إننى أكتب قصصا قصيرة وأفكر فى نشرها فى الصحف أو المجلات.. هل تعرف أحدا فى الصحافة..

قال خالى: أعرف «على حمدى الجمَّال»..

كانت هذه هى أول مرة أسمع فيها عن «على حمدى الجمَّال».. كنت يومئذ طالبا بالجامعة.. وكان هو محرراً فى الأخبار..

مد خالى يده وطلب الأخبار، وسأل عن «على حمدى الجمَّال»، قيل له إنه ليس موجودا.. ثم سأل عن موسى صبرى فوجده.. قال له: ـ

ـ أن لى إبن أخت يتصور أنه كاتب للقصة، سوف أرسله إليك بقصصه.. لتقول له رأيك فيها..

ذهبت ومعى قصتان أحداهما مترجمة والثانية مؤلفة، قابلت الأستاذ موسى صبرى وأعطيته ما أحمل من القصص.. كانت هذه هى أخر مرة أرى فيها القصص.. وأغلب الظن أنها وجدت طريقها لسلة المهملات..

بعد شهرين من التسويف قال لى الأستاذ موسى صبرى

ـ إسمع.. نحن لا ننشر قصصا للمبتدئين أو الهواة، إنما ننشر للمشاهير، هل تحب أن تعمل فى الصحافة..

قلت له: ولكنى لا أعرف شيئاً عن الصحافة.

قال: سنعلمك. . .

وهكذا بدأت حياتى الصحفية منذ أربعين عاما على وجه التقريب. . تعلمت بسرعة. . وركزت ذهنى فيها وأعاننى عليها هذا الحس الأدبى الذى إستفدته من القراءة. .

المرة الأولى التى رأيت فيها الأستاذ «على حمدى الجمَّال» كانت أثناء صعودى فى أخبار اليوم. . شاهدت من خلال زجاج الباب شابا أنيقا يصلى. . . سألت ـ من هذا؟ قيل لى ـ هذا هو الأستاذ «على حمدى الجمَّال». .

تذكرت خالى على. . إنه صديقه. . إذا حدث شئ أو صادفتنى عقبة فسوف أذهب إليه لاستشارته. .

لا تأتى المصائب إلا من الحبايب. . هكذا يقول المثل العامى. . أما تفصيلاته فكانت كالتالى، بعد عام من العمل فى مجلة الجيل فى أخبار اليوم، أصبحت أحتل مكانة متميزة بين العاملين، رغم إننى لم أكن قد عينت بعد كما إننى كنت أنشر إسمى فى المجلة، وكان أول من نشر إسمى هو الأستاذ أحمد رجب، كان بمثابة رئيس للمحررين جميعا، وقد أعجبته التحقيقات التى كنت أقوم بها. .

المهم أن هذا التركيز فى الصحافة قد لوحظ من العائلة، وعرفوا حين نشر إسمى أننى أعمل فى الصحافة، وثارت

مخاوف أمى أن أهمل دراستى الجامعية بسبب الصحافة. . وهكذا توجهت أمى إلى خالى على، وشكت له إننى قد أهملت الجامعة لحساب الصحافة، وأن مستقبلى كله مهدد إذا لم يبادر بالإتصال بأخبار اليوم لفصلى من عملى فيها على الفور. .

ونجحت ضغوط أمى. . إتصل خالى على بعلى حمدى الجمَّال ورجاه أن يكون واسطة خير وأن يفصلنى من العمل لكى أتفرغ للدراسة الجامعية. وإتصل على حمدى الجمَّال بموسى صبرى. . ورجاه أن ينقذ الموقف بفصلى من العمل. . قال له موسى صبرى إنه ليس معينا ليمكن فصله، رد عليه على حمدى الجمَّال قائلا ـ هذا أسهل. . أطرده حتى ينتهى من دراسته الجامعية. قال موسى صبرى لعلى حمدى الجمَّال: لا أستطيع طرده لأنه أحد أعمدة المجلة، ولكننى سوف أتصرف معه. .

إستدعانى موسى صبرى وأخبرنى بهذا كله وقال لى

ـ إن عملك فى الصحافة مرهون بنجاحك فى الجامعة. . يجب أن تركز فيها كما تركز فى الصحافة. . وإلا سوف نستغنى عنك. . وافقت على الصفقة، ولكن بقى فى نفسى شئ تجاه على حمدى الجمال. . شئ يشبه العداوة. .

تقول الأمثال العامية.. لا محبة إلا بعد عداوة.. لم أكن أصدق هذا المثل حتى لقيت على حمدى الجمَّال.. كانت صورته فى ذهنى معتكرة تماما.. لقد وقف فى طريق مستقبلى، صحيح إنه فعل هذا لإنقاذى، ولكننى لست طفلا لأعامل هكذا.. إنطويت على شئ من النفور وشئ من الخوف تجاهه..

ثم غادر على حمدى الجمَّال الأخبار وإشتغل فى وكالة الأنباء فحمدت الله، ومرت الأيام.. وسنة ١٩٥٨ إنتقلت إلى الأهرام للعمل محررا بها..

كان مدير التحرير فى الأهرام هو على حمدى الجمَّال..

إن الشبح القديم ما زال يطاردنى.. ماذا أفعل.. لقد مرت السنوات ونجحت فى الجامعة وعينت فى مجلة الجيل، ثم تركتها للعمل فى مجلة صباح الخير مع الأستاذ أحمد بهاء الدين، ثم تركت مجلة صباح الخير للعمل فى الأهرام..

دارت أيام الدنيا وها أنذا أواجه الشبح القديم.. قلت لنفسى ـ سوف تكون علاقتى به علاقة متحفظة تماما..

كانت ظروف العمل أو السفر تقتضى الإتصال بمدير التحرير.. وإتصلت به مرة ومرات.. أتيح لى أن أقترب منه وأتأمله جيدا.. كان يفيض بالثقة والضياء الداخلى.. هناك

ناس يلمعون من الخارج، بينما لو تأملت باطنهم فسوف تجده معتماً، أو مقيداً للأضاءة على أحسن الظروف. .

كان على حمدى الجمَّال ـ من الناحية الأنسانية ـ مضيئا من داخله، كان من هذا الصنف من الناس الذين يؤمنون بالله. . ويؤمنون أن الله يراهم ويرى عملهم وإن كانوا لا يرونه هم. . هذه الرقابة الداخلية التى تحكم كل تصرفات الانسان أو تحاول حكمها تجعل الإنسان يختلف عن غيره ممن لا يملكون هذه الموهبة. .

أول صورة رأيتها منه كانت هى صورة الصحفى. . كان نزيها. . موضوعيا. . أمينا. . يقظا. . وكان يملك موهبة إستخراج الخطأ من صفحة كاملة فى ثوان. كانت عينه مدربة على السرعة وإكتشاف الأخطاء. .

كصحفى. . كان هناك الكثير جداً مما يمكن للمرء أن يتعلمه منه. . كان مهنيا من طراز رفيع. . وكان الذى يزيد إحترامه فى قلوب الناس أن أخلاقه كانت على نفس القدر من المستوى الرفيع. .

كإنسان. . كان يملك قدراً ضخماً من الجمال الداخلى وطيبة القلب. . وكان إذا غضب من محرر وأراد أن يؤنبه نظر فى سقف الغرفة ووجه للسقف ملاحظاته وحدثه عن

أخطائه.. كان لا ينظر فى عيون المخطئين حياء منه حتى لا يحرجهم.. وتوطدت علاقتى به..

عبرنا أرض الزمالة لأرض المعرفة الوثيقة، ثم إنتقلنا إلى أرض الصداقة.. وزدت على ذلك أننى إعتبرته أخا أكبر لى.. وكنت إذا صرت إلى حيرة أو ترددت بين أمرين ذهبت إليه ووضعت أمامه المشكلة.. كان مجرد وجوده فى الدنيا كافيا ليخلع على أصدقائه إحساسا بالأمن والإستقرار، والقدرة على مواجهة المشاكل.. ومع السنوات نمت صداقتنا وتوطدت..

ذات يوم كنت جالسا فى مكتبه حين مد يده إلى التليفون وطلب رقما وبدأ يتحدث.. سمعته يقول: -

- أخبارك أيه يا حياتى.. حاضر يا روحى.. حاضر يانور عينى.

ملأتنى الدهشة.. تصورت إنه قد وقع فى الحب وسألته عمن كان يكلمه..

قال : أمى..

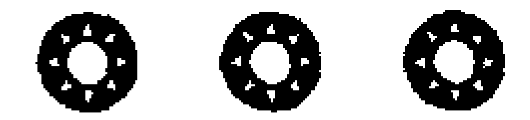
قلت له : إنك تقول لها يا حياتى.. ياروحى.. يا نور عينى.. لقد ظننت ظنا آخر..

قال : إنها أمى.. وأنا أطلبها كل يوم وأعبر لها عن حبى..

لم أعرف ماذا أقول له..

كنت أحب أمى حباً شديداً، ولكننى لم أكن أعبرعن مشاعرى بهذا الشكل.. قلت لنفسى: ماذا لو جربت هذا الأسلوب..

إكتشفت بعد فترة أن أمى سعدت بهذا التعبير عن الحب أكثر من سعادتها بأى هدية حملتها لها فى عيد الأم أو عيد ميلادها أو أى مناسبة أخرى.. وأدركت أن الكلمة أحيانا قد تكون أفضل بكثير من هدية من الذهب أو الماس..



كان المقهى يقع وسط المقابر، وكان أغرب مقهى يمكن للمرء تخيله، إن المقابر تمتد عن يمينه وشماله ومن أمامه وخلفه، وتلقى فى نفوس قاصدى المقهى كثيراً من رهبة الموت وسكونه.. هنا.. مدينة الموتى

وهى مدينة بلا صوت ولا لسان.. توقف أهلها عن الكلام وإنتقلوا من فوق الأرض إلى بطنها.. لماذا أنشئ المقهى إذن فى هذا المكان..

إن الموتى لا يجلسون على المقاهى، فما هى حكمة إنشاء مثل هذا المقهى فى مثل هذا المكان..

حيرنى السؤال كثيراً، وأسررت لصديق لى بما أحسه، فقال

- أنت صحفى تبحث عن الأماكن الغريبة وألوان الحياة

الغريبة، ولقد أحضرتك لهذا المقهى.. المفروض أن تشكرنى.. لم اقل شيئا..

كان الإجتماع الإسبوعى لعلى أمين - رحمه الله تعالى - هو إجتماع يعرض فيه كل صحفى إقتراحاته.. وكان المفروض أن نضرب فى الأرض أسبوعاً كاملاً بحثا عن أماكن غريبة، أو قصة كفاح مثيرة أو مأساة موجعه، أو أى موضوع يصلح لتحقيق صحفى.. وكان أصدقائى يعلمون حيرتى وقلة معرفتى بدخانيق القاهرة، ومن ثم كانوا يتطوعون بإرشادى لما يصلح موضوعا.

وهكذا وجدت نفسى أسير نحو المقهى.. قرأت الفاتحة على أرواح الموتى وأنا أشق طريقى بينهم، كان المقهى يتضح للعين كلما إقتربنا منه.. كان المقهى عبارة عن عدة مقاعد خشنه من الخشب والقش، ومجموعة من المناضد، وتعريشه، ومنقد من الفحم يقبع فى المقهى، وجوار نار المنقد رجل ينحنى على الفحم المشتعل ويختار منه عدة فحمات يضعها على كرسى المعسل، ويسقى الرجل الجالس وحده..

أيضا كان هناك كلب ضخم من النوع البوليسى يرقد عند أقدام الرجل الجالس.. حين وصلنا رفع الكلب رأسه وحدجنا بنظرة سريعة، ولكن صاحبه أشار بقدمة إلى الكلب أن يبقى فى مكانه فعاد الكلب للنوم.

جلسنا فى المقهى وأنا أحس بالإنقباض والإكتئاب . .

تأملت أمامى المقابر التى تحيط بنا من كل جانب . . وزاد إحساسى بالكآبة . . هذه هى نهاية السعى اللاهث فى الحياة الدنيا . . هذا الصمت الموحش هو النهاية . . وبعد أن كان الإنسان يدب فوق سطح الارض وهو يسعى ويحلم ويألم ويأمل، صار الآن الى بطن الأرض ملتفا بنوم ترابى بلا أحلام . .

تساءلت بينى وبين نفسى فى هذه الوحشه المتأبدة أين يذهب الإنسان بعد موته . . لا أتحدث عن خيمة الجسد الترابية، فهذه من التراب وإلى التراب تعود، إنما أسأل عن بقية الإنسان . . عن روحه . . ونفسه . . وأحلامه وأطماعه . . أين يذهب هذا كله، هل يعود سطوراً فى كتاب الخلق حتى تحين الساعة ويستيقظ الموتى ويقفون أمام ربهم للحساب . .

ـ ماذا تشرب يابيك؟

أيقظنى من تأملاتى صوت الرجل الذى كان ينحنى على النار منذ قليل . .

قلت : شاى . .

قال : سكر كثير أم معقول؟

قلت له : معقول . .

لاحظ صديقى أننى مكتئب.. سألنى

ـ هل أثرت فيك المقابر؟

سألته : ألا تؤثر فيك لنت؟ تدخل الرجل الذى كان ينحنى على النار وهو يعد الشاى قائلا :

ـ الناس لا تعتبر .. والأولى بها أن تفعل.

بعد قليل وصل الشاى..

بدأ حلاوة يصب لنا الشاى من براد أزرق صغير.. أيضا كانت الأكواب مذهبة الحوافى وصغيرة.. وكان واضحاً أن الرجل يخصنا بمعاملة خاصة، سببها صديقى الذى صحبنى للمقهى..

كان حلاوة ـ كما عرفت إسمه بعد ذلك ـ هو روح المقهى كله، هو الذى يقدم القهوة والشاى، وهو الذى يشعل الجوزة أو الشيشة، وهو الذى يلاغى الزبائن.. ولما كنت زبونا يريدون كسبه ويرونه للمرة الأولى، فقد إختصنى حلاوة بمعظم حديثه.

كان طويل القامة، معروق الرقبه، نحيلا أشد النحول، يرتدى جلباباً نظيفاً وإن كان فقيراً للغاية، وكان ينتعل حذاء ممزقا ومخيطا فى قدميه، ولم تكن معه ساعة..

لم يكن من السهل معرفة عمره أو تحديد سنه، كان وجهه يمكن أن يكون لشاب فى الثلاثين أو شيخ فى الستين. .وكانت عيناه ذكيتين تلمعان بدهاء طيب، أما أفكاره ـ وهذا هو الشئ المدهش ـ فكانت على قدر من الحكمة والنضوج الذى يجعل المرء ينسى تماما أنه يجلس فى مقهى وسط المقابر. وأدركنا الأنس بوجوده وإنخرطنا فى حديث معه، وهو حديث كان الشاى والقرفة والقهوة يتعاقبون عليه. . أو كانوا بمثابة محطات فى طريق الحديث. .

وبينما نحن نجلس سمعنا صوت صراخ حاد. . وإنقبضت قلوبنا من الصراخ ولكن حلاوة قال بهدوء

ـ لا تنزعجوا. . هذه صرخات نساء حول المشرحة، لقد وصلت جثه إنسان إلى المشرحة، وبلغ الخبر ذويه فجاءوا يودعونه بالصويت. . كان يقولها كمن يتحدث عن رجل وقعت منه علبة الكبريت على الأرض. . صمت قليلا وعاد يقول «إنا لله وإنا إليه راجعون» هذا حال الدنيا. .

ساد الصمت فى المقهى ولكن مرور الوقت نجح أن يسدل النسيان على الصرخة الموجعة. . وعاد الحديث من حيث إنتهينا كأن شيئا لم يكن. . تحركت حاستى الصحفية، ومضيت أفكر. . ماذا يكتب المرء عن مكان كهذا. .

سألت حلاوة: أين تسكن

رفع يده وأشار إلى مقبرة بعيدة وقال:ـ

ـ أسكن هناك. . فى هذا الحوش. .

نظرت حيث أشار فوجدت حوشا لمقبرة. .

سألته مندهشا : تسكن فى المقابر

قال : نعم

قلت له : ألا تخاف وأنت ترقد جوار الموتى؟

قال : ما هو الفرق بين النوم والموت. . أليس النوم موتا صغيرا. .

تأملت كلمته ووزنت ما فيها من حكمة وزادت دهشتى، على نهاية الجلسة، كانت الصداقه قد إنعقدت بينى وبين حلاوة. . .وهى صداقة إمتدت لسنوات بعد ذلك. .

فى نفس الوقت. . كنت أفكر فى الموضوع الذى يمكن أن يكتب عن هذا المكان، إن المقهى يصلح نقطة إبتداء للموضوع. . موضوع سكان المقابر. . وهذا موضوع مثير. . . .

كيف يفكر هؤلاء الناس، وبماذا يحلمون، وما هى آمالهم وأحلامهم؟

وأيضا كيف نجحوا فى عبور الخط الفاصل بين الحياة والموت، فلم يعد الموت مزعجا كنهاية حتمية، وإنما صار الموت سكنا وفراشا ودفئا وبيتا.. هناك سر فى الموضوع، ويجب أن أعثر على السر..

تعودت أن أتردد على المقهى ومعى صديقى حيث كنا نشتبك مع حلاوة فى حوار طيب، ونطمئن فيه على أحواله، ونعرف ماذا جد فى حياته..

فى نفس الوقت كنت أجمع معلومات عن المكان والأشخاص.. ثم إنحنيت ذات يوم على حلاوة وقلت له:

- أننى أفكر فى عمل تحقيق صحفى عن المقهى

قال حلاوة : لا تفعل.. ربنا أمر بالستر..

لم أفهم ماذا يقصد بجملته وعدت أقول له : أن الكتابة عن سكان المقابر يمكن أن تحرك الحكومة لعمل شئ.. قال: الحكومة لن تعمل شيئا.. فلا تكتب الموضوع

لم أفهم سر مقاومته، لم يكن الخجل من سكناه فى المقابر هو السر، فقد كان يعتبر المقابر نعمة للموتى، لأنها تتاوى أجسادهم، ونعمة للأحياء لأنها توارى أجسامهم أيضا..

المهم أننى عزمت أمرى على تصوير المقهى وحددت مع الجريدة يوما لذلك، وأنبأت حلاوة بالأمر..

ونزلنا.. المصور وأنا فى اليوم المحدد وإتجهنا إلى العنوان..

سألنى المصور : تقول أن المقهى يقع بين المقابر..

قلت له : سترى بنفسك..

وصلنا أخيراً إلى العنوان.. نزلنا من السيارة ومضينا نشق الطريق وسط المقابر.. كان المصور نافد الصبر، وكان واضحاً أنه قد أصيب بإكتئاب من مشهد المقابر والأحواش ومن الصمت المخيم والرهيب.. وظللنا نمشى حتى أشرفنا على المقهى.. سرنا قليلا ثم وقفت.. هنا كانت المقهى.. لم أجد المقهى ولم أجد أحداً أعرفه..

قلت للمصور : كان المقهى هنا.. لقد جئت بالأمس..

قال المصور : هل إنشقت الأرض وإبتلعته؟

مضيت أبحث حول المكان وداخل المكان نفسه عبثا عن المقهى.. إختفى المقهى كأنه كان جنيا ظهر قليلا ثم عاد يختفى.. لم أجد التعريشه، ولا المقاعد ولا المناضد ولا المنقد ولا النار ولا أى شئ... ذاب المقهى من الوجود تماما....

عدت مع المصور وهو يدمدم ويبرطم طوال الطريق، ويتحدث عن الصحفيين غير المسئولين الذين يتوهمون وجود مقاه وسط المقابر... ومرت أيام وأنا لا أعرف سر هذا اللغز...

ثم قلت لنفسى : لأذهب غداً إلى المقهى لأرى هل مازال مختفيا أم عاد إلى الظهور . . ذهبت فى اليوم التالى فوجدت المقهى فى مكانه . .

جلست حانقا وجاء حلاوة . .

قلت له : يا حلاوة . . أين كان المقهى يوم السبت الماضى؟

قال : يوم السبت هو أجازة المقهى، لا نشعل ناراً ولا نمشى ولا نشتغل . .

قلت له : هل صاحب المقهى يهودى . .

ضحك وهو يقول لا . .

أدركت أنه يخفى عنى سراً . . فإستحلفته بالله أن يحدثنى عن حقيقة الأمر، ولكنه إشترط شرطا ليتكلم . .

ـ أن أكون قد أقلعت نهائيا عن فكرة تصوير المقهى أو عمل موضوع عن سكان المقابر . .

أعطيته كلمتى أننى قد أقلعت . .

قال حلاوة : لقد أبلغت صاحب المقهى أنك قادم للتصوير يوم السبت، فإختفى المقهى فى الحال . . .

إن هذا المقهى قد أقيم هنا بغير تصريح، كما أننا نسكن فى المقابر بغير تصريح، ولو صورتنا أنت فسوف تعرف الحكومة

مكاننا وتأتى وتكبس علينا.. ربما كان فى المقهى من يبيع الحشيش، وربما كان فيه من يسكن مع الموتى دون إذن.. لقد رضينا ببؤسنا فلا تزد همومنا هما آخر..

قلت له : إنكم تعيشون فى بؤس هائل، وتخافون الإعلان عن بؤسكم هذا حتى لا تصيروا إلى بؤس أشد منه..

قال : تمام.. هذا ما أردت أن أقوله..

عاد حلاوه يشير اشارة خفية إلى رجل يجلس هناك وحوله مجموعة من الرجال ـ هل ترى الجالسين هناك.

قل : نعم.

قال: هؤلاء يدخنون الحشيش.. هل تريد أن تصور المقهى وترشد البوليس إليهم.

قلت: لا لا.. لم أقصد ذلك..

قال حلاوه: ربنا أمر بالستر.. هل أقنعتك.

قلت له : لقد أقنعتنى يا حلاوة..

❂ ❂ ❂

كنت إذا دخلت بيتى أسرع يرحب بى.. كان يبالغ فى مشاعره، فقد كان يستقبلنى كما لو كنت عائداً من الحرب بعد غيبة عشر سنوات.. كان يهز جسده كله، ويهز ذيله، ويقفز واقفاً على قدميه الخلفيتين ويضع يديه على صدرى.. وكان التعبير الذى يطل من عينيه هو تعبير مركب من الفرح المشوب بالخوف، وكان هذا كله يحدث بعد غياب دقائق.. أكون قد نزلت فيها إلى الشارع لشراء شئ ما.. كان اذا أردت الخروج وتركته وحده فى البيت يودعنى كما لو كنت ذاهبا بلا عودة، وكان إذا دخلت البيت يستقبلنى كما لو كانت المرة الأخيرة التى يرانى فيها.

وهزتنى هذه المشاعر.. وإستسلمت لحب جارف تجاهه، وأصبح هذا الكلب شيئا عزيزاً ومهماً وجوهرياً فى حياتى..

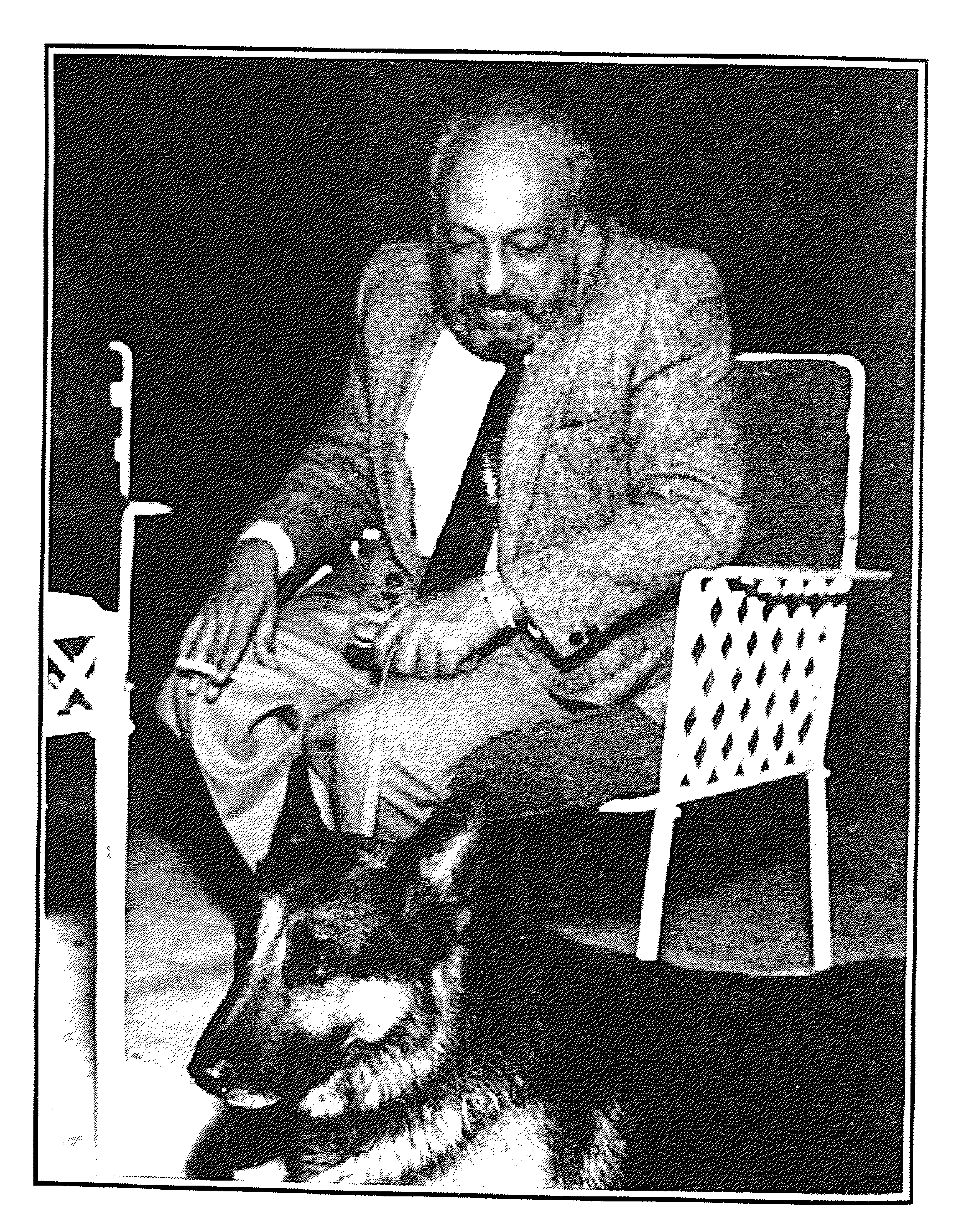
أصبحت حياتى مرتبطة به بشكل ما . . صحيح أنه لم يكن كلباً عادياً . . كان كلباً من كلاب الرعاة الألمان . . الزاسى النوع، ضخم الحجم شديد الذكاء والولاء والوداعة فى نفس الوقت. كان مظهره يخالف باطنه كل الأختلاف . . أن مظهره لو نظرت إليه يلقى الرعب فى قلب أى إنسان . . فهو أقرب بشكله إلى ذئب من ذئاب البرارى الألمانية.

كان ضخم الوجه . . وكانت أنيابه مثل أنياب النمر . . وكان شعره يتكون من لونين . .

لون هو الأسود الداكن، لون يقترب من البيج . . ظهره أسود، ووجهه كذلك . . أما بطنه وأقدامه فيتراوح لونها بين البيج والأشقر والأسود . . وكان ضخم الحجم بصورة ليست عادية . . بإختصار . . كان مجرد شكله الخارجى هو شكل وحش يتهيأ لإلتهام فريسته والأولى بالإنسان أن يتنحى من طريقه . . هذا هو الشكل الخارجى، وكم يخدع الشكل الخارجى . . من الداخل كان الكلب سلطانا فى الوادعة . . والاحساس . . والذكاء . . والحب . . ولقد سميته «سلطان الوداعة»، ثم سقطت نهاية إسمه وبقى «سلطان» . .

ولقد كان لقائى به قصة تستحق أن تروى . . كان يزورنى صديق مصرى يعمل فى ألمانيا منذ أكثر من عشرين عاما، ولم

تكن معه سيارة، وكان ينزل فى فيلا صديق مسافر من مصر، وقد أعطاه مفتاح الفيلا . .



الأستاذ / أحمد بهجت ويجلس أمامه سلطان
«كلبه العزيز»

قلت لصديقى، سأوصلك الى الفيلا..

قال لى : سآخذ تاكسى. . قلت له ولو. . هذا مستحيل. . سأوصلك بسيارتى. . لن يستغرق الأمر غير دقائق لأرتدى ملابسى. .

ذهبت به إلى الفيلا وكانت لها حديقة واسعة، وفى هذه الحديقة وجدنا كلبا هو المسئول عن الحراسة. . لم نكد نوقف السيارة حتى إستيقظ الكلب ووقف وقفة إستعداد للدفاع عن الفيلا. . ثم تعرف على صديق صاحبه، ورآنى معه، فظل واقفا فى مكانه متحفزاً لا يعرف كيف يتصرف. . فتح صديقى باب الحديقة ودخلنا. . إنحنيت قليلا ورحت أداعب الكلب.

ادرك الكلب أننى أقدم يد الصداقة فجاء يمشى ثم شم أقدامى وهز ذيله. . وضعت يدى على رأسه ورحت أربّت عليها. . وعاد الكلب يشم أقدامى وملابسى. . لم أحس بالدهشة لسلوك الكلب، فأنا نوع من الناس الذى يمكن أن يوقف سيارته وينزل لمداعبة كلب من كلاب الشارع. . فى ملابسى رائحة كلاب إذن. . وهذا ما كان سلطان يستنشقه فى ملابسى، فلما تأكد له أننى صديق للكلاب، تخلى عن تحفظه وبدأ يبادلنى المشاعر. .

بعد دقائق كنت ألعب مع الكلب بكرة وجدناها فى

الفيلا.. كان الكلب يلعب بسعادة فائقة.. وبشكل يوحى بأنه محروم من اللعب، ورجحت أن صاحب الفيلا كثير الأسفار، وبالتالى فإن الكلب يحس بالوحدة.

وحدثت صديقى بما أحسه فأكد لى أن صاحب الفيلا لا يعيش فى مصر إلا أياما كل عام، وأنه ترك الفيلا وترك الكلب فى حديقتها ليمارس مهام الحراسة..

سألت صديقى : من الذى يطعم الكلب.

قال : الجناينى..

سألته : ماذا يطعمه.

قال : يبل له الخبز فى الماء ثم يضع عليه بعض البلوبيف..

أحزننى ذلك..

أن كلبا بهذا الحجم يحتاج إلى نظام خاص فى الأكل، وهو بالقطع جائع ومحبوس فى نفس الوقت.. لقد فقد الطعام والحرية معا.. ليس كلبا من كلاب الطريق ليجرى على رزقه، وأنما هو محدد بأسوار هذه الفيلا اللعينة.

وأحسست أن الكلب يصعب على، ولكنى لم أعرف ماذا أفعل.. بعد نصف ساعة قضيتها فى اللعب مع الكلب والحديث عنه، غادرت الفيلا عائداً لبيتى.

في اليوم الثانى. .

جاء صديقى يزورنى فى البيت. . . وعدت أوصله إلى الفيلا. . هذه المرة كنت أحمل معى بقايا طعام وعظام. .

كان إستقباله لى فى المرة الثانية يتسم بالحفاوة ويخلو تماما من التحفظ، لقد أدرك أننى صديق، كما كان تقديره للطعام الذى أحضرته عظيماً، فقد إلتهمه فى ثوان، وقرقش اضخم العظام كما يقرقش الطفل قطعة من الملبس أو البونبون.

توطدت صلتى بالكلب. . وطوال الاسبوع الذى قضاه صديقى فى مصر، كنت أوصله كل يوم، وأطعم الكلب، وألاعبه قليلا ثم أنصرف. . وجاء يوم سفر صديقى من مصر. .

أحسست أننى لن أرى الكلب بعد الآن، وإحتوتنى كآبة فقد إعتدت عليه.

ولاحظ صديقى أننى مهموم فسألنى عن السبب. . فلما أنبأته بما أحس قال لى ـ هل تريد الكلب. . تستطيع أن تأخذه حتى يعود صاحبه من رحلته فى الخارج. . كان هذا الحل الوسط هو أفضل الحلول الممكنه يومئذ. . وهكذا أخذت الكلب فى اليوم الأخير وذهبت به إلى بيتى. . ركب الكلب السيارة بفرح شديد يوحى بأنه معتاد على ركوب السيارات

وأخرج رأسه من زجاج النافذة الخلفيه وراح يستنشق هواء الحرية بنهم وهو يدلدل لسانه من فمه..

كنت قد حصلت على معلومات كافية عن الكلب، لقد ولد فى ألمانيا ثم سافر إلى أمريكا، ثم سافر من أمريكا إلى مصر، حيث إستقر به المقام فى هذه الفيلا المهجوره التى لا يسكنها صاحبهما سوى بضعة أيام فى كل عام..

الكلب إذن من أبناء الأصول، وهو من عائلة شهيرة من عائلات الكلاب فى المانيا.. وله ملف فيه صور آبائه وأجداده.. فكرت فى نفسى عن مصير الكلب.. لقد جاء أخيراً إلى مصر.. والجو فى مصر هو أول أعدائه..

أن كلاب الرعاة الألمانية ـ فيما أعرف ـ لا تطيق الحرارة ولا تحتملها، وهى تذبل فيها وتحتاج إلى حمام يومى أو كل يومين.. أيضا تتأثر هذه الكلاب بالمناخ المحيط بها، فهى تحتاج مثلا إلى مساحات خضراء لتجرى فيها كل يوم، أيضا يصيبها الإكتئاب نتيجة لبعض الظروف البيئية غير المناسبة..

كان صديقنا «على عفيفى» قد أحضر معه من ألمانيا كلبة من كلاب الصيد وكان إسمها «كلوديا».. وكانت هذه الكلبة قد إعتادت أن تقف فى إشارات المرور الحمراء ولا تسير إلا بعد أن تضئ إشارة المرور باللون الأخضر.. بإختصار، كانت الكلبة الألمانية نموذجا فى الإنضباط الألمانى وإحترام القوانين.. ثم

جاءت إلى مصر. . وإستقرت فى القاهرة. . لم تكن هناك مساحات خضراء تجرى فيها فإمتنعت عن الأكل كما إمتنعت عن قضاء حاجتها وإنتهى بها الأمر إلى طبيب بيطرى أكد أن الكلبة مصابة بإكتئاب نفسى بسبب الجو. . وأن علاجها أن تعود إلى ألمانيا. . فكرت فى هذا كله وأنا أحمل سلطان معى فى السيارة وأقطع الطريق نحو بيتى. .

أخيراً وصلنا إلى البيت. . قلت لسلطان بعد أن أوقفت السيارة - يا سلطان. . ستجد البيت ضيقاً وبغير حديقة، فلا تبتئس، وربما وجدت الطعام متواضعاً اليوم، ولكننا غداً سوف ندبر الأمر فلا تحزن. . سوف نقتسم اللقمة، ورزقى ورزقك على الله فلا تقنط. .

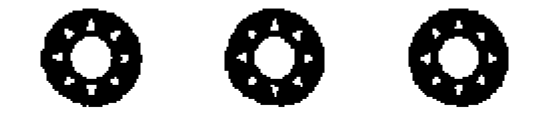
إستمع الىَّ الكلب ثم أسرع ينزل من السيارة ويتشمم الطريق. . كان واضحاً أنه سعيد بهذه الإنطلاقة الجديدة التى غادر فيها الفيلا بحديقتها، حيث كان مسجونا بشكل ما ولا يرى من الدنيا سوى الحديقة الصغيرة. .

صعدنا سلالم البيت وهو يتوقف أحيانا ويتشمم جزءاً ما فى السلالم. . ثم فتحت له باب الشقة وأطلقته فيها. .

فى البداية أحس بغربة فى المكان. . فراح يجرى من غرفة النوم إلى غرفة المكتب ذهابا وإيابا، كأنه يبحث عن شئ ما. . ثم خرج إلى الشرفه وأطل على الشارع وعاد إلى

البيت يتشمم أثاثه ويتوقف عند بعض الزوايا ويتشممها جيداً..

لم أعرف عن أى شئ كان يبحث.. هل كان يبحث عن رائحة كلاب سبقته إلى النوم فى هذا المكان، أم كان يبحث عن مكان يتخذ منه محلا مختاراً لحراسة البيت كله.. لم أعرف على وجه التحديد عن أى شئ كان يدقق البحث.. وهكذا بدأت حياتنا معا.. وهى حياة تعلمت فيها عشرات الأسرار عن عالم الكلاب..



✍ تختلف تربية الكلاب عن تربية القطط..

القطط نمور صغيرة وهى تملك رشاقة النمور وتستطيع تسلق الأشجار مثلها، وإن كانت أنيابها وأحجامها فى متناول الإنسان.. ويستطيع أن يلعب بها دون خوف..

أحيانا يعض القط اصبع صاحبه.. ولكنه عض هين لطيف يبدو فيه التمثيل أكثر مما تبدو الحقيقة.. ويبدو فيه القصد من اللعب أكثر مما يبدو قصد الايذاء..

وتشترك الكلاب مع القطط فى رغبتها فى اللعب مع أصحابها وأحيانا يمد صاحب الكلب يده فى فم الكلب ويلاعبه ويتظاهر الكلب بأنه يعض اليد.. ولكنه لايفعل، إنما يلمسها بأنيابه لمسا خفيفا، وهو يتخلى عن ذلك حين يأمره

صاحبه.. أما القط فإنه يمكن أن يتمادى فى لعبه، وينسى أنه قط ويذكر أنه ينحدر من عائلة النمور.. ويمكن أن يخربش يد صاحبه أو يجرحها أما الكلب فلاينسى أبدا حدوده، ولايتجاوزها ويؤذى صاحبه.. ولعل هذا هو أول فارق بين الكلب والقط.. إن القط ينسى حدوده ويمكن أن يتجاوزها أما الكلب فلا يرتكب هذه الفعلة أبدا.. من هنا نشأت المقولة التى تدمغ القطط بالغدر..

وقديما كنت أدافع عن القطط، وأقول لمن يصفها بالغدر أن هذه إشاعة أطلقتها الكلاب عليها.. ومازلت أدافع عن القطط، وإن كنت أعتقد الآن أن غدرها النسبى نابع من عائلة النمور التى تنحدر منها، وليس للكلاب أى صلة بذلك.. فالكلاب لاتطلق الإشعاعات على أعدائها كالبشر..

ويأتى الفارق الجوهرى بين الكلاب والقطط.. إن القطط تعلمك كيف تعطى الحب، وكيف تدلل، أما الكلاب فإنها تعلمك كيف تستقبل الحب.. إنك تنادى القط أن يحضر فلا يحضر.. إنه الآن جالس فى بقعة دافئة أو باردة حسب موقعه من الفصول.. وهو مستمع بجلسته تماما ولايعبأ بنداءاتك.. وتنهض ثائراً وتتوجه إلى القط وتقول له:ـ

ـ إننى أناديك..

وينظر إليك القط نظرته اللامبالية كأنه يقول لك:ـ

ـ إيه يعنى.. أنت تنادينى وأنا الآن مشغول.

أما الكلب فأى إشارة له تعنى أن ينهض ويندفع نحوك تلبية لطلبك، حتى لو كان الكلب نائما.. حتى لو كان متعباً، فإنه لايتردد بعد إشارة صاحبه لحظة..

ولقد قيل إن الكلاب تبالغ فى مشاعرها مثل ممثلى الدرجة الثالثة، وصحيح أن الكلاب تبالغ فى مشاعرها، ولكنها لاتبدو رديئة مثل ممثلى الدرجة الثالثة، لأن مبالغة الكلاب جزء من طبيعتها وفطرتها التى فطرها الله عليها.. وهذه المبالغة مطلوبة.. وتبدو حين تصدر من الكلاب متفقة ومنسجمة معها.. وقد لفتت هذه الظاهرة نظرى بعد أن إنتقلت من عالم القطط إلى دنيا الكلاب..

إن القطط لاتخلو من أنانية، أما الكلاب فهى الوفاء والولاء الصافى الذى لاتشوبه شائبة واحدة من عكارة أو عصيان.. لفتت هذه الظاهرة انتباهى وفكرت فى حكمتها.

لماذا خلق الله الكلاب بكل هذا الولاء والوفاء..

إن الكلاب أساسا مخلوقات مهمتها الحراسة.. والكلب سواء كان ضخما أو ضئيلاً يستطيع أن ينبح، ونباحه كاف لإيقاظ أهل البيت وتنبيههم إلى وجود غريب أو لص أو

مقتحم. . ولقد حاولت أن أتصور رعاة الغنم بغير كلب. . أن الراعى ـ بغير كلب ـ لايستطيع أن يؤدى مهمته فى الرعى. .

إن الصحراء بعريها الرملى وإمتدادها وحركة الرياح وعواصف الرمل التى تجتاحها فترة بعد فترة. . هذه الصحراء شىء يثير الإحساس بالوحدة داخل الإنسان، وربما كان يدفعه إلى الخوف. .

تصوروا راعيا يسوق أغنامه أمامه. . ليس معه كلب. . ماذا يفعل هذا الراعى فى أحساسه بالوحدة. . إن الخراف والأغنام مخلوقات فى حالها، وهى بصمتها هى الأخرى تزيد من وحدة الراعى وتعمقها وتزيدها كثافة. .

ماذا يفعل الراعى فى تمزيق الإحساس بالوحدة. هنا يأتى دور الكلب، إن الكلب ـ رغم أنه يتحدث بلغة النباح والهوهوه، إلا أنه قادر على الحديث بآلاف اللغات السرية التى تشيع البهجة والأنس وتزيل غربة الراعى وتجعله يحس أنه مطمئن وفى بيته وليس تحت رحمة الصحراء وزوابعها الرملية. . .

هذا أول دور يعلبه الكلب. . إنه يملأ قلب صاحبه بحب بهيج ومشاعر مبالغ فيها. . الأمر الذى يبعد عن صاحبه كل إحساس بالإغتراب أو الوحدة. . ثم يأتى دوره فى الحراسة. .

ماذا يفعل الراعى فى الصحراء أمام أخطارها المختبئة التى تتمثل فى الذئاب والضباع وسائر الوحوش المفترسة؟ ماذا يفعل الراعى بغير كلب؟

إن حاسة الحراسة عند الكلاب عالية للغاية، ورغم أن الكلب ينحدر من عائلة الذئاب، رغم ذلك وربما بسبب ذلك صار الكلب هو الحارس الوحيد الذى يستطيع أن يواجه الذئاب فى الصحراء.. وكلاب الرعاة أسرع من الذئاب عادة، وهى تملك الشجاعة على ملاقاة الذئاب وتخويفها بهذا النباح العالى الذى ينطلق منها مثل قذائف المدفعية.. وفى حضور الراعى والكلب ينهزم الذئب عادة ويكتفى من الغنيمة بالإياب..

تأملت أحوال سلطان معى.. لقد طاف بالشقة كلها أكثر من مرة.. وعرف مداخلها ومخارجها، وفهم أن باب الدخول هو مصدر الخطر الرئيسى.. ومن ثم فقد كان يتخذه محلاً مختاراً للنوم. كان ينام وراء الباب.. بحيث تكفى أى حركة فى الباب لكى يستيقظ هو ويتشمم الرائحة ثم يبدأ فى النباح..

كان صوت سلطان قويا إلى حد يفزعنى أنا شخصياً، وكانت هوهوته من النوع الذى ينبىء عن إفتراس قادم..

وكان يخيف الأغراب مثلما كان يملأ وجودى بالبهجة..

بعد أيام قليلة من وجوده فى البيت معى، ونزوله إلى الشارع أربع مرات أو خمس مرات فى اليوم.. أصبح سلطان أشهر شخصية فى الشارع..

فى البداية.. هوهوت عليه كلاب الطريق.. لم يرد هو.. إكتفى بالوقوف وتأمل الكلاب التى تنبح طويلاً ثم عاد يسير.. كان واضحا أنه يحتقرها لضعفها وبؤسها وصغر حجمها.. ومن ثم فقد إستمر فى سيره وكأنها غير موجودة.. وأثار ذلك كلبا أبيض كان يتزعم الشارع، وشجعه أن سلطان قد جاوزه وسار، وخيل هذا الكلب أن سلطان يهرب من التحدى، وتقدم هذا الكلب من سلطان وراح ينبح..

ـ وتوقف سلطان للمرة الثانية..

نظر إلى الكلب دون أن يرد عليه بالنباح.. وتشجع الكب الأبيض وتقدم أكثر.. وظل سلطان فى مكانه لايغادره.. حين أصبح الكلب قريبا من سلطان بالدرجة الكافية، فوجئت أن سلطان يفلت من سلسلته ويقفز قفزة واحدة.. قفزة تشبه قفزات أبطال العالم فى الجمباز.. ثم نزل بكل ثقله وقوته فوق الكلب الأبيض.. بعد ثوان كان يطبق على الكلب بفك كالفولاذ وأسنان كالعاج.. وأطلق الكلب

الأبيض صرخة تقول إنه سيموت.. وقفزت وراء سلطان ومددت يدى وإنتزعته من فوق الكلب بصعوبة..

ونظر إلىَّ سلطان غاضبا، ثم حائراً كأنه لايفهم، وإنطلق الكلب الأبيض يسابق الريح وكأن وراءه شياطين الجحيم، بينما ظل سلطان يرتعش فى يدى من الغضب والحيرة..

سألتنى عيناه: كيف لاتسمح لى بتأديبه.

قلت له: ياسلطان.. لا داعى للافتراء على كلاب الطريق لأننى أصلا محب لجنس الكلاب عموما، ثم أنك لست من وزنه ولامن حجمه لتخوض معه مباراة فى الملاكمة.. لقد أدبته وهذا يكفى.

بعد هذا الحادث.. دانت كلاب الشارع لسلطان القوة، وأصبح سلطان زعيمهم بغير منافس، وكان إذا خرج أثناء الليل خرجت وراءه الكلاب وهى تهز ذيلها وتتراقص حوله وتلاعبه..

وطارت شهرة سلطان فى الشارع والحى كله، وطارت شهرتى معه، وأصبح الأولاد إذا شاهدونى أصحبه وأمشى قالوا لأنفسهم

ـ الراجل بتاع الكلب أهو..

وقنعت بهذه الشهرة المتواضعة التى أسندونى فيها إلى الكلب، وزاد إحساسى بنفاسة الكلب وأهميته.. وكان الأولاد ينظرون إلىّ نظرة عالية، ويقتربون منى وهم يتراجعون ويسألون.

ـ هل يمكن أن نربت على رأسه.. هل يمكن أن نسلم عليه.. وكنت أمسك الكلب من رأسه وأدعهم يسلمون عليه ويربتون على جسده.. ومع الوقت.. صار سلطان صديقا لكل أطفال الشارع، وكانوا يلاعبونه ويدللونه ويربتون على رأسه.. وكان هو يتقبل هذا يوما بعد يوم.. لأننى أريد ذلك.. لا لأنهم يريدون ذلك..

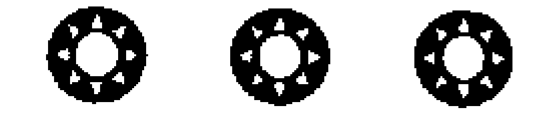
يوما بعد يوم.. أدركت أن الكلاب تمنح أصحابها حبا لايستطيع تصوره أو تخيله أو حسابه أحد.. نحن أمام حب مدهش.. إن الحب فى جوهره الأصيل هو الطاعة المطلقة، والكلب يمنح صاحبه هذه الطاعة مثلما تعطر الورود الجو دون أن تدرى..

ثم جاء الصيف على سلطان.. وإعتكر مزاجه بسبب الحرارة الشديدة..

سألت خبيرا فى الكلاب فقال لى

ـ إذهب به إلى الطبيب وأحلق له شعره..

وقد فعلت ذلك، ولكننى لم أكن أتصور أن حلاقة شعره ستزعجه كل هذا الإزعاج، وستحمل له كل هذا الحزن والقلق . .



سلطان يكتئب

لم أكن أتصور أن الإكتئاب النفسى يصيب البشر والحيوان معا.. كنت خاضعا لبديهية تقول أن الإنسان هو وحده المخلوق الذى يفكر.. ويحلم.. ويتمنى.. ويكتئب.. أما الحيوان.. فكيف يكتئب إذا كان لايفكر ولايحلم ولايتمنى..

آن الأوان أخيرا للخروج من إسار هذه الفكرة الخاطئة.. آن الأوان أن أتعلم شيئا من الحيوان.. كما تعلم قابيل فيما مضى من غراب كيف يوارى جثمان أخيه بعد الموت..

كان الحر شديدا فدفعنى للإقدام على ماأقدمت عليه. . إن الحر مسئول عن كثير من تصرفاتنا الحمقاء التى لانكتشف حماقتها إلا بعد أن يولى الحر ويمضى بعجلاته الساخنة ويعود الشتاء إلى التربع فوق عرشه.

فى رواية لألبير كامى، يقتل رجل إنسانا غيره لأن الشمس كانت فى عينيه وكان الحر شديداً..

لم يبلغ ما فعلته مبلغ الجريمة، ولكنه كان فى آثاره لايقل عنها.. لقد نظرت إلى الكلب وقد جلس مفرهداً فى الحر، وتدلى لسانه من فمه وراح يلهث.. وقلت فى نفسى

ـ ماذا لو حلقت له شعره..

إستشرت صديقا لايزيد عنى كثيراً فى تجاربه مع الكلاب عن الفكرة فأفتى أن هذا جائز.. بل ومطلوب..

ما أكثر الذين يفتون بغير علم، وما أقل من يقول فى أيامنا هذه «لا أدرى» ويريح فؤاده ويوفر كثيرا من الندم.

لا أريد أن أطيل عليكم..

ذهبت إلى الطبيب البيطرى وقلت له:

ـ الكلب يحس بالحرارة وينهج كثيراً ويدلدل لسانه..

قال الطبيب: كل الكلاب تفعل مايفعله الكلب فلاتقلق.. إن الكلب يعرق من لسانه..

قلت للبيطرى: نصحنى بعض الأصدقاء بالحلاقة له مع دخول فصل الصيف..

قال: لابأس إذا كنت تريد...

قررت أن أحلق للكلب.. لم أكن أعرف ماذا سيحدث له بعد الحلاقة.. ولهذا وافقت.. كان المفروض أن يحلق تمرجى البيطرى للكلب...

قال لى التمرجى: نريد أن نكمم فمه حتى لايعض أحداً ونحن نحلق له.

قلت للتمرجى متحفزاً وقد تصاعد داخلى شعور بالغضب

ـ أنا لا أكمم فم أحد.. هذا يؤذى الكلب.

قال التمرجى: قد يعض أحداً

قلت له: لن يعض أحداً.. هذا الكلب تخرج من أرقى جامعات الكلاب فى العالم.. وهو شديد الرقى نفسيا، ولم يعرف عنه طوال حياته أنه هاجم أحداً أو عض أحداً، بإستثناء اللصوص..

تدخل الطبيب البيطرى فقال وهو يشير إلىَّ ويخاطب التمرجى فى نفس الوقت.

ـ مادام الأستاذ سيمسك بالكلب فلا داعى لتكميمه..

أمسكت بالكلب وحاولنا أن نحلق له فقاوم قليلا فى البداية، فلما رأى إصرارى وسمع رجائى له أن يتزن ويعقل، إستسلم أخيراً لمكنة الحلاقة الضخمة التى تشبه ما يحلق به الحمير..

إنتهت الحلاقة بعد نصف ساعة أو ساعة إلا ربع. . . ونظرت إلى الكلب وقلت له:

ـ ستفيق الآن ياعزيزى. .

وصحبت الكلب وعدت به إلى المنزل. . .

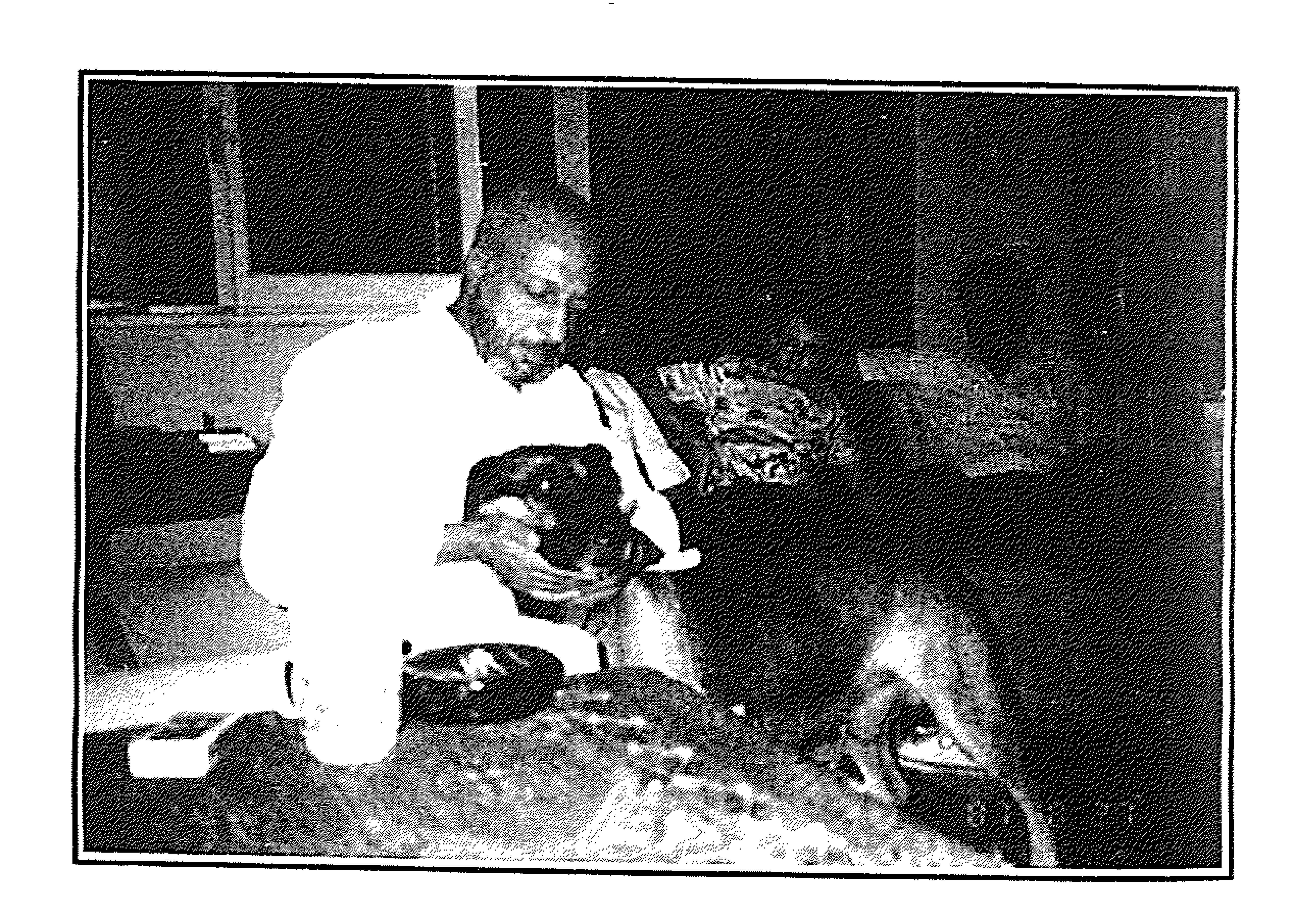
لم ألاحظ طوال الطريق قلقه. . ثم نزلنا من السيارة فسار منكس الرأس كما لو كان خجلاً من شىء. . . لم يكد يستقر به المقام فى البيت حتى ظهرت عليه آثار قلق حاد وتغير يصعب تجاهله. . .

كان يجلس. . ثم ينظر نظرة مفعمة بالحزن، ثم يقفز واقفاً ويبدأ فى الجرى، من غرفة إلى غرفة. . ثم إلى الشرفة ثم يعود إلى حيث كان. . . .لم يكن يستقر فى مكانه أكثر من دقائق. . . وأدهشنى سلوك الكلب. . ورحت أتساءل

ـ يا ربى ما الذى أصابه. . ولماذا يقلق كل هذا القلق. . .

جاء موعد طعامه عند مغيب الشمس فرفض أن يأكل. . لم يكن الطعام قد تغير ليمكن القول أن الطعام الجديد لم يعجبه مثلا. . كان الطعام هو الطعام. . ورغم ذلك فقد إنصدت نفسه تماماً عن الأكل. . . وزادت حيرتى. . حاولت حثه على الأكل، ولكنه رفض. . إكتفى بعلق الماء ومضى لافتا وجهه عن الطعام كأنه لايراه. . .

وظل الكلب على قلقه وعدم أستقراره فى مكان واحد، كان يتنقل بين غرف البيت كأنما أصابه الجنون.. وزاد خوفى ولم أفهم السر فيما حدث.. إتصلت بالطبيب وحدثته عما جرى فقال بهدوء:



الأستاذ / أحمد بهجت يربط بيده على عنق سلطان ليهدء من اكتئابه وخلفه الأستاذ / إبراهيم المعلم (رئيس إتحاد الناشرين المصريين) وإبنه شريف

- آه.. لقد نسيت أن أحدثك أن كثيراً من الكلاب يصيبها إكتئاب نفسى بعد الحلاقة.

أدهشتنى هذه المعلومة.. لماذا يصيبها إكتئاب نفسى بعد الحلاقة؟..

لقد كان منظر الكلب قبل الحلاقة يشبه منظر الأسد تماما.. إن الأسد يتميز بهذه اللبدة التى تحيط عنقه وتضفى عليه مهابة وحشية وجمالا خاصا.. كان الكلب كذلك.. كان شعره حول رقبته يحاكى لبدة الأسد، وكان جسده وشعره طويلا مسترسلا يشبه ذئباً من ذئاب ألمانيا التى تعيش فى الثلوج.. ثم ذهب هذا كله بعد الحلاقة..

ومن ثم فقد بدأ الكلب إكتئابه.. رفض الطعام ورفض الإستقرار فى مكان، وكان يطرق بنظره ويهرش نفسه كما لو كان قد أصابه الجرب.. ورغم أننى غسلت جسده جيداً بحمام دافىء، لعله ينسى أو يتغاضى عما حدث ولكنه ظل على قلقه وإكتئابه... ثم أدركه سهوم فكان يجلس فى مكانه وينظر أمامه وكأنه لايرى ولايسمع، ولايريد أن يرى أو يسمع..

كان مشهد الكلب قد تغير تغيراً جذريا بعد الحلاقة... لقد فقد حيويته وقوته وشقاوته وإستسلم لحزن شفيف وكآبة ساهمة.. وأدهشنى أن الكلب لم ينظر إلى المرآة ويرى نفسه، ولكنه كان يتصرف كمن نظر فى المرآة وشاهد ماحدث له، وإكتشف أنه أمام كلب آخر لايعرفه.. فإزداد حزنا وسهوما..

لا أعرف لماذا طفت فى ذهنى قصة شمشون، لقد كانت قوته فى شعره، فلما كادت له الغواية كان أول ما فعلته معه أنها حلقت شعره فزايلته قوته وإستطاعوا الإمساك به أخيراً حيث قيدوه فى الساقية وإنفلت من زمرة الأحرار إلى زمرة العبيد.

لم ينظر شمشون فى المرآة ورغم هذا فقد أصابته الكآبة..

مضيت أفكر فى سلطان.. ثم جلست جواره على الأرض وقلت له:

ـ سلطان.. ما الذى جرى لك..

قال بعينيه الحزينتين ـ لقد زعرتنى..

قلت له: كان القصد هو تخفيف الحر عنك..

أدار الكلب وجهه للناحية الأخرى وعاد يغرق فى سهومه..

قلت له: لن نحلق لك مرة أخرى... وإذا إضطررنا لذلك فسوف نترك لك لبدتك كما هى.. وإن كنت أرى أنها وسط هذا الحر غير محتملة..

لم يعقب سلطان بشىء.. وبدأ عليه الإكتئاب أكثر من ذى قبل... وبدأ إحساسى بالذنب تجاهه.. لقد أحضرته من بلاد لاتتوقف فيها الثلوج أكثر من نصف العام، أحضرته من بلاد

الخضرة والسهول الممتدة إلى بلاد تشع حرارة وصهدا وتلسع فيها حجارة الطريق أو أسوار الشرفات أو مقابض الشبابيك أنا الملموم.. لقد نقلته من الجو الجميل البارد الذى كان يعيش فيه وأحضرته إلى جهنم.. من يدرى.. لعل الكلب يتصور نفسه الآن فى جهنم..

قلت له: أنا مثلك لا أطيق الحر.. أيضا أنا مثلك أقدر الشتاء حق قدره، ولكن ماذا نفعل ياسلطان.. هو قضاؤنا أن نعيش فى صحراء يشقها نهر طويل، وتقترب فيها الشمس من الرؤوس كأنها عمامة من نار.. هو قضاؤنا ياسلطان.. أعرف أن داخلك فطرة تدين لخالقها دون كلام ودون طقوس..

لتتحمل إذن ما جرى وعفا الله عما سلف.. لن أحلق لك بعد الآن..

لم يكن هذا الوعد هو الذى إستخرج سلطانا من بئر الكآبة التى وقع فيها.. إنما كان عودة شعره إلى سابق عهده هى التى أخرجته من الكآبة..

لقد إستغرق الكلب ما يقرب من شهر حتى عاد شعره إلى سابق عهده... وعاد هو إلى طبيعته المعتادة..

❂ ❂ ❂

سلطان .. رحيل دون وداع

عاش الكلب معى كواحد من أفراد الأسرة.. بل لعله كان فى مركز ممتاز عن كثير من أفراد الأسرة.

مثل أى أب ديكتاتورى، كنت أوجه لإبنائى تعليمات وأوامر ونواهى، وكانوا كعادة الأبناء ينفذون ربعها ويتجاوزون عن البقية، أما الأوامر والنواهى التى كانت توجه إلى الكلب فكان ينفذها جميعا، وإستقر فى وعيى أن الكلب أكثر ولاء وطاعة من الأبناء ومن ثم فقد إتسمت معاملتى له بود أكثر من ودى للأولاد.

كنت أقول لهم: إن أخاكم الذى ينتمى لعالم الكلاب يتصرف بشكل أفضل منكم أيها السادة.

وكانوا يتلقون هذه التصريحات منى بإبتسامة لطيفة،

ويدللون الكلب بإعتباره قريبا من قلبى. . ويعترفون بأنهم سيحاولون الوصول إلى درجة الكلب فى الوفاء والولاء.

وكان تدليلهم للكلب يرضينى. .

ولكن محاولاتهم فى تقليد الكلب فى ولائه باءت جميعا بالفشل.

إن الكلب يعطى حباً من لون خاص ومتفرد. . وهو يقدم هذا الحب بنسبة عالية لايصل إليها معظم البشر.

وثمة ميزة أخرى فى الكلب. إنه يحب ويعبر عن حبه بلسان الصمت. إنه لايحدثك عن حبه. . ولايفيض لك فى وصف عمقه وإتساعه، ولايثرثر عنه كما يفعل البشر. . وبالتالى يظل جوهر هذا الحب بعيداً عن الكلمات والكذب. . ولسان الصمت أعظم فى التعبير من الكلمات لأن الإنسان أحيانا يستخدم الكلمات إستخداماً خاصاً فيقول مالايعنيه، ويصف ماهو غير موجود، ويقول لك: أننى أحبك. . بينما هو يتحسس خنجره ليغمده فى ظهرك. لقد أسيء إستعمال اللغة البشرية فى أحيان كثيرة. . وكثيرا ماترى الناس يتحدثون عن الحرية وهم يقصدون القيود، ويلحون فى وصف العدالة وهم ينوون الظلم.

ولعل هذا هو الفرق بين الإنسان والحيوان فى موضوع الحب. .

إن الحيوان لايتكلم. . لايقول وإنما يفعل بينما الإنسان يقول ولايفعل، هذا الفارق بين القول والفعل هو الفرق بين الإنسان والحيوان. . إن الحيوان إذا كرهك أو أراد بك شراً. عكست عيناه رغبته فى إيذائك. أما الإنسان إذا أراد بك شراً فإنه يتجمل لك، ويعطيك من طرف اللسان حلاوة. . ويروغ منك كما يروغ الثعلب.

لاحظ أن الشاعر الساذج يصف مكر الإنسان فيسنده إلى مكر الثعالب، بينما الحقيقة أن مكر الإنسان أكبر من مكر الحيوان، يستوى فى ذلك أن يكون ثعلباً أو ذئباً أو نمراً أو أسداً.

أحيانا كنت أنظر إلى سلطان وأتأمل نظرته الوديعة الجميلة الحانية. وهو يهز ذيله ترحيباً بى أو ترحيباً بضيف. أحيانا كنت أنظر إليه وأقول لنفسى.

ـ هذا الكلب أفضل عند الله منى. إنه لم يرتكب خطيئة واحدة، لم يعص خالقه مرة واحدة، لم يبارز ربه ومولاه بالذنوب. . أما أنا الإنسان المكرم الذى سخر الله له الأكوان والعناصر. . فقد جرؤت على عصيان الله وإرتكاب الذنوب.

مرت الأيام وسلطان يعيش حارساً لى، ثم جاء فصل الشتاء، وهو موسم الحب عند الكلاب. . وبدأ سلطان يبدى

رغبته فى الزواج. كان يقف فى الشرفة ويرفع رأسه إلى السماء ويتذكر أجداده من الذئاب الألمانية ويعوى. كان يعوى عواء طويلا يلقى الرعب فى قلوب الناس، ويوقظ الجيران من نومهم ويدفعهم إلى الخروج للشرفات ليروا مصدر هذا الصوت.

قلت لسلطان يومئذ: ياسلطان أسكت.. لاترفع صوتك بالعواء.. ليست هذه غابة أشجارها مغطاة بالثلوج إنما نحن فى عمارة والناس حولنا.

كان سلطان يستمع إلىّ.. ويطيع. فإذا تركته وعدت لأعمالى عاد يعوى. وأعود راجعا إليه مؤنبا ومهدداً فيسكت، فإذا تركته عاد للعواء الطويل الموجع.

سألته يوما بلسان الصمت: لماذا تعوى كل هذا العواء؟

قال بنفس اللسان: سأموت دون أن أترك أبناء.. إن من حقى أن أتزوج وأنجب... إن من حقى أن أحب..

قلت لسلطان: سوف أزوجك.. لقد إتصلت بصديق فى كلية البوليس ليبحث لنا عن كلبة من نوعك، كلبة تليق بجنسك الراقى... كلبة تستطيع أن تنجب لك صوراً مصغرة منك.

لم يلتفت الكلب لما قتله. كان واضحا أنه أسير لحمى

الحب . . . ولايستطيع أن يستمع لكلام العقل، بعد يومين من هذا الحوار الصامت . . . إكتشفت أن سلطان يجرى وراء كلبة من النوع البلدى التعيس.

كانت الكلبة بيضاء وترتدى ثوبا أبيض مبقع ببعض الألوان البنية، ولم تكن جميلة، على العكس من ذلك كانت تفتقر إلى جميع الميزات الكلبية الأخرى، فهى بلا تاريخ، وعائلتها مشكوك فى أمرها، وحجمها لايتفق مع حجم سلطان الضخم . . وهى تعوى إذا تكلمت أو هوهوت عواء غريبا يصك سمع السامع، فلا يتصور أن هذا صوت كلبة، بإختصار . . كانت الكلبة قبيحة بأى مقياس.

رغم هذا القبح . . . وقع سلطان فى غرام الكلبة . . وتم زواجهما فى الحديقة المجاورة. وكانت ليلة العرس ليلة تاريخية، فقد كانت الحديقة تطل على ناد من النوادى . . وكان هناك فرح بشرى فى النادى، فأضاءوا الأنوار فتحولت الحديقة إلى شعلة من الأضواء الملونة.

وعرف القاصى والدانى أن سلطان قد تأهل أخيراً ودخل دنيا.

للأسف . . كنت آخر من يعلم.

قلت لسلطان: كيف تتزوج دون أن أعرف.

هز ذيله وتثائب. . وكان واضحا أنه عزوف عن الكلام فى هذا الموضوع الشخصى فصرفت نفسى عن الكلام فيه.

بعد شهور كانت الحديقة تمتلىء بجراء صغيرة يلعبون فيها ويتسابقون ويتواثبون. كان هؤلاء أبناء سلطان.

وتصرفت مثلما يتصرف أب تزوج إبنه ضد إرادته ولم يخضع فى إختيار العروس لحكمة الأب. إنتهى الأمر ونحن الآن أمام أمر واقع ولابأس من إحناء الرأس وقبول الموقف على علاته. وهكذا بدأت أربت على دماغ زوجة سلطان وألاعب أبناءها بإعتبارهم حفدة صغار.

ومرت الأيام. وزاد عدد أبنائه زيادة رائعة، ولم يكن سلطان يؤمن بفكرة تنظيم النسل، كما أن زوجته كانت تلد فى البطن الواحد ستة من الجراء الصغيرة.

بعد سنوات كانت كلاب المنطقة كلها هى أحفادى الصغار وقد كبروا الآن وصاروا يحرسون المنطقة كلها لوجه الله، دون إنتظار لأجر أو مثوبة أو طعام. تكفى قطعة من العظام يعثرون عليها لتكون دافعا لإخلاص الجهد فى الحراسة.

بعد تسع سنوات ونصف من حياة سلطان معى. . مرض الكلب ذات يوم. .

قال الطبيب: ليس فيه عيب سوى الشيخوخة. . إن ماتراه

من إختلاف أحواله نابع من الشيخوخة.. لاتقلق عليه..

أردكت أن سلطان يوشك على الرحيل.. وزاد حبى له.

وفى الليلة التى سبقت موته فعل شيئا لم يكن يفعله فى العادة.. لقد قفز إلى الفراش الذى أجلس فوقه.. ونام بحيث ألصق جسده بأقدامى. وظل نائما فترة.

وأحسست بالدهشة.. ليس الكلب معتاداً على صعود فراشى. فما الذى يقصده بهذا التصرف. لم أفهم حكمة ماوقع إلا فى اليوم التالى.

إستيقظت لأجد سلطان قد مات.. قيل لى إنه جرى من أول البيت إلى آخره.. ثم دخل غرفة وتمدد أمام السرير وأسلم أنفاسه.

وحملته فى ملاءة ووضعته فى سيارتى وذهبت به إلى صحراء مصر الجديدة قريبا من المطار ودفنته هناك وقلت لله

ـ اللهم إن هذا خلق من خلقك، منحته نعمة الحياة ثم إستردتها منه، وأنت يارب لاتسترد نعمة إلا لتمنح نعمة أعظم منها..

وهكذا رحل سلطان دون وداع، أو رحل بوداع لم أفهمه حين وقع.

❂ ❂ ❂

الباشـــا الصغيـــر!

هو بعض من عرفت..

وربما كان أهم من عرفت هذه الأيام..

جاء ميلاده فى يوم قائظ من أيام شهر يوليو، وهو قلب الصيف.. وأبلغتنى شقيقتى بالخبر.. قالت

ـ مبروك.. جاءك حفيد ولد

لم تعجبنى كلمة «ولد»

هذا ولى العهد المنتظر.. جاء أخيراً بعد رحلة غامضة ومثيرة.. كيف تتكلم عنه شقيقتى بهذا الإستخفاف..

قلت لها: تقصدين ان الباشا وصل.

ضحكت فى التليفون ضحكة تؤكد إستهانتها وقالت تعليقا يفتقر إلى الذوق عن الألقاب التى أصبحت ببلاش..

تجاوزت عن تعليقها وبدأت أفكر.. كيف نحمد الله على وصول الباشا؟

وكيف نستقبل الباشا شخصيا؟

أى مراسم ينبغى أن تقام لاستقباله؟

أى ذبائح يجب أن تذبح بعد وصوله؟

إن هناك كثيراً من المهام التى تنتظرنى.. وهى كلها مهام ثقيلة تحتاج فى ترجمتها الفورية إلى نقود كثيرة.. وجدت نفسى منفعلا من الداخل.. وأدهشنى ذلك كثيراً.. قد رزقت قبل ذلك بحفيدة هى ندى.. وقد إنفعلت لميلادها ولكننى لم أقلق كما أنا قلق اليوم.. فتشت داخلى عن سر سلوكى.. هل يختلف ميلاد الولد عن ميلاد البنت عندى؟

لست أظن ذلك.. بل إننى أكاد أجزم بالعكس.. إذا كان ما أقوله صحيحا فلماذا إنفعلت لميلاد الحفيد الولد، أكثر مما إنفعلت لميلاد الحفيدة البنت.. قلت لنفسى: ربما وقع ذلك لسبب لاعلاقة له بالذكورة والأنوثة.. إن البنت أمرها معروف، ويمكن إهداؤها بالملابس وهذه الأشياء الذهبية كالحلقان والغوايش، أما الولد فلايمكن إهداؤه بالذهب..

إن الأمر محيّر..

فكرت فى هذا الاحتمال ثم طرحته جانبا..

لاريب أن داخلى شعرة من التخلف. . فأنا فى نهاية الأمر أسير مجتمع معين. . وزمان خاص. . وكل تقاليد المجتمع وأعرافه - وهى للعلم ليست قريبة بالدرجة الكافية من الدين - كل هذه التقاليد والأعراف تجعلى إستقبال الذكر غير إستقبال الأنثى. . وينظر الناس إلى مولودهم الذكر عادة ويتحدثون عنه كولى للعهد. .

وربما يكون الأب فقيراً معدما ولكنه يفرح بميلاد إبنه أكثر مما يفرح بميلاد إبنته. .

أفهم أن يمر بهذا الشعور ملك أو أمير عنده ولاية عهد شاغرة، ويريد أن يملأها ويطمئن على أن ابنه سيحكم الولاية من بعده. .

أما إذا كان الأب رجلا عاديا فمن أين يجىء كل هذا الفرح؟!! كتب شاعر إنجلترا العظيم وليام شكسبير أكثر من مسرحية عن ملوك إنجلترا. . كان شاغلهم هو إنجاب ولد، ورغم أن النساء يحكمن فى إنجلترا ولايقف فى طريقهن وصف الأنوثة، رغم ذلك إنتهت إحدى ملكات إنجلترا إلى المقصلة لأنها لم تنجب للملك ولداً. . وإنما أنجبت له إبنة. .

لشد ما ظلمت المرأة على إمتداد التاريخ البشرى. . لقد كانت الجاهلية العربية تعرف مايسمونه بوأد البنات، كانت البنت إذا ولدت وبلغ الخبر للأب، التوى وجهه وإسودت

ملامحه.. ووقع فى صراع داخلى.. وقد وصف الله تبارك وتعالى هذا الموقف فى قوله

«وإذا بُشِّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم.. يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به.. أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب».

هناك علاقة إذن بين التخلف والجهل والجاهلية وظلم المرأة وعدم الإحتفال بها.. هى تركيبة معقدة تسفر عن تفضيل جنس على جنس.. دون أى مبررات لهذا التفضيل، وعلما بأن الله يحدثنا أنه هو الذى يهب لمن يشاء ذكوراً ويهب لمن يشاء إناثاً..

نحيت أفكارى جانبا وقررت زيارة الباشا الصغير.. لقد جاء هذا إلى الدنيا زاهداً لايحمل اسماً ولاعنواناً ولاملابس ولامال.. جاءها عارياً من كل شىء.. ولعل ضعفه هذا هو سر قوته.. قبل مجيئه كان هناك نظام فى البيت.. وكانت هناك مراكز مستقرة.. ولم يكن هناك طغيان لأحد على أحد..

بعد أن وصل الباشا تغيرت المراكز المستقرة، وتراجع الأب والأم وتحولا معاً إلى أتباع ومريدين وخدم لهذا الباشا الصغير.. لاتكاد عين الباشا تغفل حتى تهمد الحركة فى البيت.. ويخلد كل من فيه للنوم السريع، مدركين أنهم

سيستيقظون بعد وقت لايعلمونه على صراخ الباشا وهو يريد أن يأكل أو يشرب أو حتى يقوى رئتيه بالبكاء. .

أمره عجيب هذا الباشا. .

لقد تحول إلى ديكتاتور صارم، يجرى كل من فى البيت لتحقيق رغباته والنزول على أوامره. . ومن المدهش، أن هذا هو النوع الوحيد من الديكتاتورية الذى يمارس طواعية وبحب شديد، ولايرى فيما يجرى أى غضاضة.

جاءت المواجهة أخيراً. . جاءت لحظة اللقاء بالباشا الصغير. قيل لى فى البداية.

ـ الباشا نائم. .

توقفت متردداً. . هل أعود من حيث أتيت أو أغامر بالتسلل على أطراف أصابعى لرؤيته. . إخترت الحل الثانى ودخلت. . وقفت أتأمله. من الدخان إلى الماء إلى النطفة إلى الرحم ثم أخيراً للحياة. . أى معجزة تمر أمام أعيننا ونحن لانراها من فرط الألفة والعادة. .

قلت لنفسى: سبحان الله. . «رجل» صغير ولكن وزنه لايزيد على أربعة كيلو جرامات. . إن وزنه أقل من نصف بطيخة، ورغم هذا فقد نجح هذا الكيان الصغير أن يؤثر فى مجرى حياة الأسرة وينشىء لها نظاماً جديداً وأسلوباً مغايراً. . كان ضعيفاً. . هش الأصابع، وكان يغمض عينيه فأى شىء

كان يرى. . كان واضحا أن الباشا قادم من رحلة طويلة ويريد أن يستريح من وعثاء السفر. .

فتح الباشا عينيه وتحرك حركة خفيفة. . تأملت وجهه حين إستيقظ. . لم يكن ينظر إلىّ، إنما كان يمد عينيه بعيداً كأنه يفكر فى شىء ما أو يتذكر شيئا ما. . مددت يدى ولمست يده. . كانت أصابعه هشة وكان يغلقهما على الهواء. . تكلمت معه فلم أعرف ماذا أقول له ولاكيف أرحب به. .

قلت له: نحن سعداء بتشريفك ياباشا، ونرجو أن يكون مستوى الخدمة قد أعجبك فترضى عنا. .

لم يسمع الباشا مما قيل شيئا ولم ينتبه إليه. . وعدت أقول له. .

ـ لقد إخترنا لك إسم مصطفى. . تشريفا وتيمنا بإسم المصطفى سيد أبناء آدم ولافخر. .

لم يبد على الباشا أنه سمع أو إنتبه لما نقوله، كل ماحدث أن شبه إبتسامة ولدت على شفتيه ثم عاود اغلاق عينيه ونام. .

وعدت أتسلل خارجا على أطراف أصابعى. .

❂ ❂ ❂

د. حسين فوزى (١)

هناك ناس يدخلون قلبك منذ الوهلة الأولى، وهناك ناس تحاول ـ بعقلك ـ قبولهم ولكنهم يتعثرون على أبواب القلب.. كان د. حسين فوزى من النوع الأول.

كانت له موهبة «القبول».. وكان من الصعب على من يعرفه ألا يقع فى حبه.. عرفته فى مكتب توفيق الحكيم فى الأهرام فى الستينات.. كنت محرراً صغيراً يومئذ.. وكان هو نجماً من نجوم الثقافة والأدب والفن والعلوم..

تركيبة عسيرة على الفهم، ولكنها تعيد إلى الذهن تركيبة إبن سينا الذى كان طبيباً وفيلسوفاً ومفكرا وأديبا ومعلماً فى نفس الوقت. فى المرة الأولى التى رأيته فيها وعرفت أنه د. حسين فوزى، لم أكوِّن فكرة كاملة عنه.

قلت بينى وبين نفسى.. هناك رسام عبقرى إسمه حسين فوزى، وهناك عميد لكلية العلوم هو حسين فوزى... فأيهما هو؟.

إستبعدت أن يكون هو الرسام، فقد كانت ملابسه لاتشبه ملابس الفنانين، لم يكن يطيل شعره مثلهم، ولاكان يصدر عنه مايصدر عنهم من نزق وخروج على المألوف..

على العكس.. كان يرتدى ملابسه الكاملة، ويدخن الغليون.. ويبدو كأستاذ بالجامعة، ويتحرك بنشاط لايخلو من وقار.. سألت عنه توفيق الحكيم..

ـ هل هذا هو الحسين فوزى الرسام؟.. قال: لا.. هذا هو الكاتب..

قلت له: هل هذا هو السندباد..

قال: نعم..

كنت قد قرأت له عدة كتب بقى فى ذاكرتى منها كتاب «سندباد عصرى» و «سندباد مصرى». أما الأول فيحكى فيه عن رحلته على السفينة «مباحث» وهى سفينة تجوب المحيط الهندى وتقوم بأبحاثها عن الأسماك النادرة وصخور القاع.. وقد صحب د. حسين فوزى هذه السفينة كطبيب.. هو إذن من خريجى كلية الطب..

ورغم ذلك فقد كان أستاذاً بالجامعة، وعميداً لكلية العلوم، كما كان ناقداً موسيقياً له برنامج أسبوعى يشرح فيه الموسيقى الكلاسيكية ويحللها، كما كان كاتباً.. وقد عمل فترة وكيلاً لوزارة الثقافة ثم إنتهى به المطاف فى الأهرام مع توفيق الحكيم... بعد أن نجح الأستاذ هيكل فى إقناعه بالكتابة للأهرام مع كوكبة من المفكرين من بينهم نجيب محفوظ ود. بنت الشاطىء ولويس عوض وغيرهم.

هو طبيب وعالم.. وهو متذوق للموسيقى ومثقف.. وهو كاتب له أسلوبه الخاص وزواياه فى النظر إلى الموضوع. بإختصار كان دنيا بأكملها من العقل والمشاعر.. كيف كان الإنسان داخله وهو مدثر بكل هذه المهارات..؟ وكيف كانت علاقته بعالم الإنسان وعالم الحيون معا؟.. هنا وجه العجب فى شخصيته..

كان المتوقع أن يتيه رجل لديه كل هذه المواهب ويدركه شىء من غرور العظماء أو كبرياء الموهوبين.. ولكن حسين فوزى كان نسيجاً متفرداً ومدهشاً فى البشر.. كان متواضعاً تواضع العلماء الذين يدركون أن علمهم لايزيد عن علم طفل يحاول نقل البحر إلى الحفرة التى حفرها جوار الشاطىء...

كان يعرف أن الإنسان يجهل من حقائق الكون والحياة أكثر

مما يعلم... ورغم إنه كان قادراً على إجاباتك عن أى سؤال، يستوى فى ذلك أن يكون السؤال فى العلوم أو فى الآداب أو فى الشعر أو الموسيقى.. ورغم ذلك كان تواضعه يزيد كلما زاد علمه.. وكان حنانه وشفقته يتعديان عالم البشر إلى عالم الحيوان..

دعوته على فنجان من القهوة فى مكتبى فى مبنى الأهرام القديم، وكانت هناك قطة فى المكتب.. القطة كان إسمها «ياسمين» وقد أطلقنا عليها هذا الإسم لأنها كانت بيضاء كالياسمين.. فى الأصل كانت تتبع المطبعة، ثم صعدت إلى الدور الأول وإختارت مكتبى ملاذا آمنا تستخدمه طوال وجودى فى الجريدة.. فإذا إنصرفت ذهبت هى إلى حال سبيلها ثم ظهرت فى اليوم التالى، كنت أطعمها «الفشة والكرشة ولحمة الرأس» وكان هناك محل قريب من الأهرام يبيع هذا كله فلم يكن هذا يكلفنى عنتا أو مشقة وكانت وجبتها لاتكلف غير خمسة قروش.

المهم أن القطة إعتبرت مكتبى مكتباً لها وكانت تجلس على ذراع المقعد، وكانت قطة مهذبة ونظيفة، وكنت تبدو لى مثل «هانم» محترمة تنحدر من عائلة تشتهر نساؤها أو قططها بالجمال والرصانة.. دخل د. حسين فوزى مكتبى فرأى

القطة.. مدَّ يده وربت على رأسها ثم بدأ يهرش لها فى ذقنها.. وهو يقول:

ـ آه.. أنت من هواة القطط.

قلت له: هذه قطة الأهرام، وقد إستقرت هنا لأننا نرحب بها..

كان يسمعنى وهو يداعب القطة، ثم مد يده فى جيبه وأخرج منديلا ورقيا وراح يمسح للقطة شيئا من العماص كان فى عينيها.. ثم ألقى المنديل فى سلة المهملات وقال لى:

ـ القطط لاتطول تحت ذقنها لتهرشه.. وأى قطة يمكن أن تصبح صديقة لو هرشت لها تحت ذقنها..

لم أكن أعرف أنه من هواة القطط. وإن كنت قد رجحت مما كتبه عن القطط أنه يحب القطط.. ولكننى لم أعرف أنه يقتنى فى بيته أكثر من عشر قطط..

ولقد بدا لى بيته فى أول مرة دخلته أنه ينتمى للقطط... كان أثاثه بسيطا يتميز بالذوق والقدم، وكان البيت يضم مكتبات كثيرة. وبيانو، وكمان، وقططا عديدة منها مايفترش السجادة ومنها مايجلس على الكرسى ومنها من يتمدد على الأرض هانئاً مستقراً..

لم يكن هو وحده عاشق القطط. كانت زوجته الفرنسية تهوى القطط هى الأخرى ولم يكن له أبناء أو بنات، ومن ثم فقد صرف حنانه كله للقطط.. وكانت قطط العمارة التى يسكنها وقطط الشارع يصعدون إليه أحيانا كثيرة لتناول الطعام، والإنصراف أو البقاء بعد ذلك حسبما يحلو لهم..

لماذا إختار د. حسين فوزى أن يكون سندباداً لعصرناً، وحمل كتابه الأول إسم «سندباد عصرى»...

أحسب أن الرجل كان من هواة السفر والترحال، ولقد قضى تسعة أشهر فى مركب الأبحاث، ثم أصبح بعد ذلك يزور أوربا كل عام ويقضى فيها معظم الصيف.. ويعود بحصيلة طيبة من الكتب والمشاهدات.. بعد ذلك يبدأ فى إمتاع قرائه وإشراكهم فى المتعة التى حصل عليها فى رحلاته..

ورغم أن د. حسين فوزى كان كاتباً جاداً إلا أن كتاباته تكشف عن تيار من السخرية الرائقة الجميلة التى تجرى تحت هذا السطح الجاد. فى فصل بعنوان «القردة الخطافة» كتب د. حسين فوزى يقول «قال صاحبى الهندى المسيحى وقد ركبنا القطار من مادورا فى جنوب الهند، بعد زيارة معبدها الكبير المكرس للإلهة «ميناكش» ولها عيون السمكة وثلاثة نهود..

- جهزت لك غذاء إسلامياً تتناوله فى القطار على الطريقة الهندية، فقد خشيت أن يدنسك غذاء غير إسلامى فى عربات الأكل.. وشرع قبل قيام القطار فى فك «بقجة» كبيرة إحتوت أنواعاً من الأرز والكارى لإعداد لها، إختلطت بلحوم لاشكل لها ضمخت بالتوابل، وقدم لي صحنا من أوراق الموز..

أخذت موضعى من العربة وأعملت أصابعى الخمس فى هذه اللبخة الهندية التى هى غذاء إسلامى، ونية صاحبى الهندى المسيحى حسنة فالمسلم فى الهند لايقرب أكل الهندوسى، ولا المسيحى، والعكس بالعكس..

وكان من الطبيعى أن يأمن جانب إعتراضى الدينى حين يقدم لى هذه الأكلة الإسلامية، ولكنه حين علم بأن المسلمين فى غير الهند لايحيطون أنفسهم بهذه الحرمات التى لامعنى لها، وإن كل مايتجنبونه على الأكثر هو لحم الخنذير.. وعدنى بأكلة براهمانية فى محط رحالنا التالى.

وبينما يتأهب القطار للمسير وإذا تأهب القطار للمسير فى جنوب الهند فمعنى هذا أن هناك عطلا فى الخط، وأن القطار سوف لايتحرك قبل ساعة أو بعض ساعة..

إندفع جمع من القردة ويمموا شطر غذائنا الشهى، فإذا لاحظنا الشراهة المشرقة فى عيون هذه القردة فإننا نحكم تواً

بأنها قرود غير هندوسية، وإلا لعافت نفوسها أكلتنا الإسلامية.. وقام صاحبى يطاردها وقمت خلفه لأعرف من أين جاءت، فهى أول قردة أراها في بلاد القرود.

ولما كنا قد إعتدنا أن نرى فى مصر القرد تابعاً لصاحبه، فقد إشتقت أن أرى القرداتى الغنى الذى يحكم على قطيع من القردة يرسله فى أثر الطعام بدل أن يعلم أفراده نوم العجوزة إزاى.. أو بوس إيد سيدك ياولد.. أو فين عروستك ياميمون.

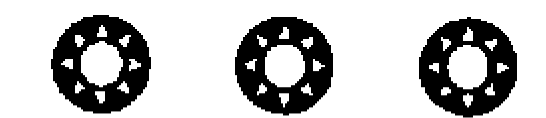
وما أن إندفعت إلى النافذة فى إثر صاحبى حتى كان أفراد من القطيع قد إندفعوا من نوافذ الناحية الأخرى وإنقضوا على سباطة الموز الذى يمثل فاكهتنا الوحيدة فإختطفوها، وعدنا نهوش ونلوح بأيدينا ولكن بعد فوات الوقت..

لقد إقتسم أفراد القطيع أصابع الموز، وذهب كل واحد منهم فى سبيله وهو يحمل أصبع الموز فى يده.. لتقشيره وأكله على مرأى منا فوق رصيف المحطة..

لم يكن هناك قرداتى وراء عملية السطو السريع هذه، وإنما فهمت من صاحبى الهندى أنها منصر (عصابة) من القردة تسطو على المحطات هذا السطو المنظم.. فيشاغل فريق منها الناس من ناحية، حتى إذا ما قاموا يطاردونها هجم الفريق

الآخر من الناحية الأخرى، وحمل ماتصل إليه أيديه من الموز والجوز . .

وجعل صاحبى يعتذر لى أسفاً عما حدث.



يعترف د. حسين فوزى فى مقدمة كتابه «سندباد عصرى» على نفسه بإختصار فيقول:

«درجت على حب حضارة الغرب، والإعجاب بحضارة الغرب.. وقضيت أهم أدوار التكوين من عمرى فى أوروبا، فتمكنت أواصر حبى، وتقوت دعائم إعجابى.. فلما ذهبت إلى الشرق عدت إلى بلادى وقد إستحال الحب والإعجاب إيماناً بكل ما هو غربى»..

تكشف هذه الكلمات عن إتجاه أستاذنا وصاحبنا د. حسين فوزى، وقد كان هذا الإيمان موضع نقاش من جانبى. فى البداية، لم أكن أجرؤ على مصارحته أو الحوار معه حول أوروبا. . أو الغرب. . كان.الغرب كعبة يتجه إليها على المستوى الحضارى، وكنت أرى أن الغرب ليس كله خيراً. . إن فيه مافيه من خير وتقدم، وفيه مافيه من شرور ينبغى تجنبها. .

كان رأى الدكتور حسين فوزى مثل رأى الدكتور رشاد رشدى مثل رأى الدكتور لويس عوض.. مثل رأى معظم أدبائنا ومفكرينا المحدثين.. أنهم يؤمنون بالغرب.. إيماناً يجعلهم لايتصورون وجود تقدم فى غيره، أو إمكان تقدم فى غيره..

وكان سبب هذا الإيمان هو مقارنتهم بين الغرب والشرق.. فى ذروة تقدم الغرب وحضيض تخلف الشرق.. وكانت هذه المقارنة ظالمة فى رأيى. ولم أكن أفصح عن رأيى فى بداية معرفته.. فلما توطدت أواصر الصداقة بيننا.. إستطعت أن أقيم معه أكثر من حوار حول نقطة الخلاف هذه.. قلت له يوما:

أنا مثلك معجب بالغرب، ولكنه إعجاب لايبلغ حد الإيمان، وهو ليس إعجاباً صافياً.. إن فى الغرب جانباً مادياً متقدماً لايمكن للإنسان أن ينكره أو يمارى فيه، فنحن نركب السيارة والطائرة ونتمتع بالكهرباء والسلع، وهذا كله من إنتاج الغرب.. ونحن نسلم بأننا فى موقف التلميذ الذى يتعلم فى هذا كله، فإذا جئنا إلى الفلسفة والحياة الإجتماعية، فإن هناك من نقاط التفرقة ما هو أكثر بكثير من نقاط الإلتقاء.. وهنا.. لانقف نحن موقف التلميذ من الغرب.. إنما نقف موقف

الند، إن لنا ثقافتنا وفلسفتنا وإيماننا وأعرافنا وعاداتنا التى تشرب من نبع آخر هو نبع الإسلام..

ومن المهم ألا نفرط فى هويتنا، لأننا لو فرطنا فيها فسوف نصبح بلا شخصية، ولن نصير أوروبيين.. ولن نعود شرقيين..

كان يستمع إلىّ بهدوء وإهتمام.. وقال لى فى نهاية الحديث: لا خلاف بيننا فى حقيقة الأمر.. إن أحداً لايطالبنا بأن نتخلى عن هويتنا أو نرمى ثقافتنا فى البحر.. ولكن فى عاداتنا الإجتماعية وأعرافنا كثير مما يجب إلقاؤه فى البحر أيضا.. كان التقدم هو حلمه.. وكان النموذج القائم يومئذ هو الغرب.. وكان فى هذا النموذج إغراء لايقاوم.. لم يكن الإيدز قد ظهر بعد وراح يهدد المدنية الغربية كلها بسبب الفوضى الجنسية.

خالص القول أن الدكتور حسين فوزى كان مثقفا من طراز رفيع، ولم يكن متعصباً لثقافته الغربية، ولا مغلقا داخلها أو مكتفياً بها، إنما كان مفتوح العقل للثقافات جميعاً، حريصا فى نفس الوقت على هويته وشخصيته.. ولقد كان د. حسين فوزى يرى العالم بعين فنان وعقل ساخر وقلب محب..

إنه يسجل لوحة للقرود الذين يسطون على القطار سطواً

منظماً فى الهند، حين يشاغل فريق منهم الناس من ناحية، على حين يهجم القرود من الناحية الأخرى وينقضون على طعام الناس كالموز والجوز. .

ماذا كان تعليق د. حسين فوزى على ماحدث؟

قال لصاحبه ضاحكاً: نحن ندفع للقرداتى فى مصر مقدار ماتساويه سباطة موز فى الهند، مقابل أن يعرض علينا قرده الوحيد ـ بصحبة جحش ومعزة هما فى الأصل كومبارس ـ ألاعيب أقل طرافة مما رأينا ـ وأنا أشكر هذه الفرصة التى أتاحت لى ـ فى مقابل سباطة الموز ـ أن أشاهد فصلاً بديعاً من هؤلاء القرود يفضل عندى كل شقلبات قرود القاهرة، وكل تقليد نوم العجوز ونوم العروسة، فهذه فى مجموعها دروس محفوظة عن ظهر قلب. .

أما أن يتآمر قردة محطة مادورا على زائر مصرى يرافقه مضيفه الهندى ويدعوه إلى مأدبة إسلامية ويصيبوا هذا النجاح الباهر، فهذا آخر ما كنت أنتظره من أصدقائى الحيوانات. .

كان د. حسين فوزى صديقا للحيوانات كما يقول. . إنه يسجل فى كتابه «سندباد عصرى» عن قطة مركب الأبحاث التى يسميها مشمشة. . وهو يتحدث عن هر متقشف ينتمى للهند ويعيش مثل النساك ويعذب نفسه مثلهم ويدعى الزهد وهو يطوى نواياه على شىء آخر لا

علاقة له بالزهد.. وهو يروى قصة الخروف الذى أفلت من خرم إبرة..

نحن إذن أمام حديقة حيوان صغيرة تضم قطة وقطاً ومجموعة من القرود وخروفا.. ولكل واحد من هؤلاء قصة طريفة تضحكك وتضع يدك على عجائب الحياة وأسرار المخلوقات..

يحدثنا د. حسين فوزى فى كتابه «سندباد عصرى» عن السفينة «مباحث» بنفس الأسلوب الساخر الذى إتبعه فى الكتاب..

«كانت باخرتنا العلمية نوعا من سفينة نوح، غير أنها لم تحو من الإنسان غير الذكور، أما من الصراصير والفئران والهوام فيكفى أن ترى تزايد عددها كل يوم لتعلم أنها لم تجىء إلى مركبتنا خالصة لوجه الكشف العلمى مثلنا.. إنما جاءت لتشاركنا مأكلنا ومشربنا وفراشنا، فلم أر أصفق وجها من فئران هذه السفينة..

أما صراصير هذه الموكب فكانت سكيرة عربيدة، أدمنت شراب الفيرموت الإيطالى إلى درجة أوردتها موارد التهلكة حين وجدنا فى هذا الشراب خير مصيدة لها..

فإذا إستثنينا الفئران والصراصير فى المركب بإعتبار أنها كدود المش منه فيه، وإستثنينا رحلة من الرحلات إضطررنا فيها

إلى حمل عشرين رأساً حياً من غنم بربر، وبضعة أزواج من الدجاج اليمنى، نجد أن ركاب سفينتنا الأربعين كانوا كلهم ذكوراً إلا مشمشة..

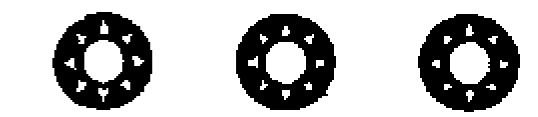
يحدثنا د. حسين فوزى عن مشمشة وهى قطة المركب بشخصيتها الفذة وحب الجميع لها وإشتراكها فى نشاطهم العلمى حتى أنها صارت كواحدة من العائلة.. وقد لاحظ ركاب السفينة أن مشمشة لاتقرب الأسماك التى تصيدها شباك المركب لأغراض علمية بهدف دراستها، وقال العلماء من ركاب السفينة أنها تحترم البحث العلمى وتعرف ما لهذه الأنواع الغريبة من قيمة علمية فلا تقربها.. وقال الهازئون بالعلم أنها تعاف هذه النماذج العلمية، إذ تعرف بسليقتها أنها لاتسمن ولاتغنى من جوع.

ولقد ظلت مشمشة تتصرف بشكل مهذب حتى أوفت على البلوغ وجاء موسم التزواج، فدارت تملأ أرجاء السفينة مواء وهى مدفوعة بغريزة تتنبه فيها لأول مرة.. وإختلفت تعليقات ركاب السفينة وكان تعليق د. حسين فوزى:

- إن هذه القطة التى تتأففون من موائها ليل نهار، أشجع من إبن آدم، فهى حينما طلبت الأليف أعلنت ذلك على رؤوس الأشهاد بلا هوادة وفى غير خجل ولا وجل..

ويمضى د. حسين فوزى فى كتابه . . .

تحس وأنت تقرأ له أنك أمام كاتب ساخر يستطيع أن يلتقط من الحياة ما يضىء عقلك ويدفع الإبتسامة إلى شفتيك، وهو يتحدث عن عالم الحيوان كما يتحدث عن عالم البشر، بإنسانية تجعل الحيوان صديقاً لك. . لايختلف عن أصدقائك من البشر إلا فى درجته أو مكانه من السلم الحيوانى . .



جلال الدين الرومى

لا أعرف متى سمعت للمرة الأولى عن جلال الدين الرومى... ربما يكون ذلك أثناء قراءتى فى كتب الصوفية وإشاراتهم إليه.. على أن أول لقاء لى مع الرومى كانت حين عثرت على الجزء الثانى من كتاب «المثنوى والمعنوى» الذى ترجمه الدكتور محمد عبد السلام كفافى ـ رحمه الله تعالى..

قرأت الكتاب وانبهرت..

مثل أى عمل أدبى خارق كان هناك سطح للكتابة، وكان السطح مثل صفحة البحر. . يمتد حتى الأفق. . ويبدو سهلا ولطيفا وممتعا، فهناك حكاية يحكيها، وهى حكاية يمكن أن تحكيها لطفل فتأخذ أهتمامه وتستولى على مشاعره. .

هذا عن السطح. . أما الأعماق فكانت تحتاج لغوص وعناء وإن كان الكنز فى إنتظار من يغوص أبعد وأبعد. . تحت سطح

الحكايات التى تدور بين الإنسان والحيوان، أو تدور بين الحيوان والحيوان، كانت المعانى الصوفية تنكشف للقارئ سطرا بعد سطر.. وبيتا من الشعر بعد بيت..

وبدأت البحث عن الجزء الأول من الكتاب.. عبثا حاولت العثور عليه فى مكتبات القاهرة. كانت الطبعة التى تحتوى على الجزء الثانى قد طبعت فى بيروت.. فى المكتبة العصرية.. وقررت السفر إلى بيروت..

طرت فى مساء يوم إلى بيروت، ونمت ليلتى فى فندق وسط المدينة، وفى الصباح مررت على المكتبات أسأل عن الكتاب حتى عثرت عليه، وتوجهت فوراً إلى المطار عائداً إلى القاهرة.. كان سرورى بالعثور على هذين الجزئين عميقا..

ثم إكتشفت أن الدكتور كفافى لم يترجم كل كتاب المثنوى المعنوى، وإنما ترجم جزئين فقط، وهناك أربعة أجزاء باقية بغير ترجمة إلى العربية.. ثم نما إلى علمى بعد ذلك أن الدكتور كفافى ترجم جزئين آخرين ولكنه مات قبل طبعهما، وكان هذان الجزءان قد فقدا أو طمرا فى مكتبة الرجل..

وقد عثر عليهما أخيراً شقيق الدكتور كفافى وأسلمهما إلى دار الشروق لطبعهما مع الجزئين الأولين..

ولقد قامت دار الزهراء للاعلام العربى بطبع الجزء الثالث من المعنوى بعد أن ترجمه د. شتا إلى العربية.

باختصار، نجحت الصحافة أن تلفت إنتباه المثقفين والناشرين الواعين إلى أهمية ترجمة وطبع هذا الكتاب..

والكتاب بصراحة كنز لا ينبغى أن يكون موجوداً بالفارسية، وغير موجود بالعربية.. وهذا الكتاب لعب دوره فى تاريخ الحب الإلهى ومازال يلعب دوره..

سألت روجيه جارودى يوماً.. وكنا نتعشى معاً - عن الكتاب الذى لفت إنتباهه إلى الإسلام وجعله يدخل فى هذا الدين، كانت إجابته..

- كتاب المثنوى المعنوى لجلال الدين الرومى..

ورغم أن الرجل مات منذ أكثر من سبعمائة عام، إلا أنه مازال يجذب إلى الإسلام عقليات فذة، ومازال يلعب دوره فى الدعوة إلى الله. بالحب.. والحكمة..

ولد جلال الدين الرومى فى بلاد الأناضول فى مدينة بلخ سنة ١٢٠٧ ميلادية، أى سنة ٦٠٤ هجرية. وكانت الاناضول تسمى أرض الروم، ومن هنا إكتسب الرومى إسمه..

كان أبوه يدعى بهاء الدين ولد.. وينتسب الأب إلى أبى بكر الصديق.. وكان الأب عالماً دينياً من أتباع أبى حنيفة..

وقد حظى الأب بمكانة ممتازة بين العلماء حتى لقب بسلطان العلماء وقد هاجم الفلاسفة والمتكلمين فى عصره.. وقد

إضطر لمغادرة مدينة بلخ بعد أن إختلف مع حاكم البلاد.. وشعر بقرب هجوم المغول وبدأت الأسرة تنتقل من مدينة إلى مدينة، ومن أرض إلى أرض. كان جلال الدين الرومى يومئذ فى الخامسة من عمره..

وفى مدينة نيسابور إلتقت الأسرة بالشاعر الصوفى الكبير فريد الدين العطار، ويقال أن الشاعر أخذ الطفل بين ذراعيه، وأهداه نسخة من كتاب «أسرار نامه» كما تنبأ له ببلوغ المرتبة العليا فى التصوف.

ومرت الأيام..

وبقيت نبوءة الشاعر الصوفى غارقة فى الظلال حتى تهيأ لها ذات يوم أن تظهر فجأة..

تنقلت الأسرة بين بغداد ومكة حتى إنتهى بها المطاف إلى قونية حيث إستقر بهم المقام..

وقد تلقى جلال الدين الرومى تعليمه فى أول الأمر على يدى والده، ثم على يد برهان الدين محقق الترمذى وكان صديقا لوالده.. وقد زار جلال الدين الرومى دمشق فى حياة أستاذه ليستكمل علمه فى الفقه على يد أساتذتها..

ثم عاد جلال الدين الرومى إلى قونية.. فلما توفى أستاذه برهان الدين تولى هو التدريس بدلا منه.. وهكذا جلس

جلال الدين الرومى لتدريس الفقه حتى قارب سن الأربعين.. وحتى هذه السن لم يعرف عنه أنه قرض الشعر أو تحدث فى التصوف. كان فقيها، والاصل المشهور أن بين الفقهاء والصوفية مسافة يحتلها الحذر وتملؤها الشكوك..

كان للرومى تلاميذ يجلسون حوله فى حلقات لتلقى الفقه.. وذات يوم.. دخل المسجد الذى يُدرس فيه الشيخ جلال الدين الرومى رجل يبيع الحلوى. كان هذا الرجل صوفياً يدعى شمس الدين التبريزى، وكان يرتزق من بيع الحلوى.. دخل شمس الدين على الرومى وهو يدرس الفقه، ومد إليه يده بقطعة من الحلوى.. أكلها جلال الدين الرومى وإنخرط فى حديث هامس مع بائع الحلوى.. إنتهى الحديث بأن نهض جلال الدين الرومى وتبع شمس الدين تبريز..

ولم يعد بعدها إلى تدريس الفقه أو الإجتهاد حول الأقضية الفقهية، وهجر تلاميذه ومنصبه وتبع هذا الصوفى وصار من مريديه، ويبدو أن الطاقة التى حركها الصوفى فى قلب جلال الدين كانت من القوة والعمق، بحيث ألهمته موهبة الشعر..

بدأ جلال الدين الرومى فى قرض الشعر بالفارسية.. وبدأ تلاميذه يكتبون ما يقوله.. وخرج إلى الحياة واحداً من أعظم الآثار الأدبية الصوفية فى العالم.. وهو كتاب المثنوى المعنوى.. وهو كتاب يضم ٢٥ ألف بيت من الشعر.

لقد وجد الرومى نفسه أخيراً.. كان يبحث عنها أربعين سنة، ثم وجدها على حافة طبق من الحلوى. وتحققت نبوءة فريد الدين العطار حين ضم الطفل إلى صدره وتنبأ له أن يكون من كبار الصوفية..

أسدل الستار على عصر، ورفع الستار عن عصر آخر تماما.. إنتهى عصر الفقه لجلال الدين الرومى، وبدأت رحلته كصوفى شاعر.

يذكر لنا الرومى هذا التحول فى إحدى رباعياته فيقول :

عندما اشتعلت نيران الحب فى صدرى

أحرق لهيبها كل ما كان فى قلبى

فازدريت العقل الدقيق والمدرسة والكتاب.

وعملت على إكتساب صناعة الشعر، وتعلمت النظم.

كان لقاء الرومى والتبريزى نقطة تحول هائلة فى حياة الرومى، وهى نقطة تحول وجدت مقاومة على أرض الواقع.. فقد هال تلاميذ الرومى فى الفقه أن يتحول عن الفقه إلى التصوف، كما هالهم أن يمتنع عن الجلوس للتدريس ويقضى كل وقته مع هذا الصوفى المتجول شمس الدين التبريزى..

ولقد وصفه البعض بأنه كان شبه أمى، كما كان مجهول الأصل، ولكنه كان يتسم بالحماس الروحى العظيم فى حديثه، وكان إذا أثر بالغ فى نفوس من إستمعوا إليه. .

ولهذا الصوفى نص لم ينشر بعد إكتشفه أربرى عنوانه «المقالات» وبسبب حقد تلاميذ الرومى على شمس الدين التبريزى لأنه صرف إهتمام أستاذهم عنهم، سافر التبريزى إلى دمشق خفية وإنقطعت أخباره، وحزن جلال الدين الرومى لإفتراقه عن هذا الصديق الروحى وإبتأس كثيراً ولم ينقذه من شجونه إلا إبنه سلطان ولد، الذى ذهب إلى دمشق وعاد بشمس الدين. .

وعاد تلاميذ الرومى يهاجمونه حتى سافر مرة أخرى وأعاده الرومى ثم اختفى فى المرة الثالثة اختفاءاً تاماً. .

وقيل إنه مات. . كما قيل إنه ساح مبتعدا عن الرومى، وقد تألم الرومى كثيراً لفقد صديقه. . وكتب فيه شعراً. . يقول :

من ذا الذى قال إن شمس الروح الخالدة قد ماتت

ومن الذى تجرأ . .على القول بأن شمس الأمل قد تولت

إن هذا ليس إلا عدوا للشمس وقف تحت سقف

وعصب كلتا عينيه ثم صاح. . ها هى الشمس تموت

وكان لصداقة الرومى والتبريزى وغيابه المفاجئ أثر هائل فى تفجر ينابيع الشعر فى نفس الرومى.. لقد كتب الرومى ديواناً شعرياً كاملاً سماه «ديوان شمس تبريز» ذكرى لصديقه وموجهه الروحى شمس الدين التبريزى..

ولم يقف الشاعر عند حد نسبة هذا العمل الأدبى فى إجماله إلى صديقه، بل أنه نسب أكثر غزليات هذا الديوان إلى صديقه بوضع إسمه الأدبى فى البيت الأخير من الغزل.. كما هى عادة الشعراء الفرس فيما يسمونه «التخلص».

ومن الطريف أن الرحالة إبن بطوطة قد مر بقونية بعد وفاة الشاعر بنحو ستين عاما وكتب عنه قصة لقائه بالتبريزى، كما كتب عنه وعن أتباعه المولوية، الذين إشتهر الشاعر بينهم بلقب «مولانا» الذى إشتق منه فيما بعد إسم المولوية..

هذه بداية جلال الدين الرومى..

أما عصره فكان عصراً من أقسى العصور التى مرت على البشرية، فقد عاش الشاعر فى القرن الثالث عشر الميلادى، وهو القرن الذى شهد غارات المغول المدمرة على العالم الإسلامى، فقد إنطلقت جحافلهم تدك معالم الحضارة، وتبيد صروح المدينة بصورة لم يسبق لها مثيل من قبل..

ولقد كتب المؤرخون عن هذا العصر، وإتفقوا جميعاً على وصف غارات المغول بأسلوب يتفجر منه الرعب.. ومن

المدهش أن الشاعر عاش قريبا من مسرح الأحداث المروعة ومع ذلك وجد فى نفسه تلك الطاقة الهائلة على الإنتاج الأدبى وبقى رغم تلك الحوادث الوحشية مؤمنا بالإنسان، وبأصلة الإلهى، ناظراً إلى البشرية كلها نظرة الحنان والعطف، مسخراً كل ملكاته للنهوض بها من كبوتها، وتخليصها من ذلك المصير التعس الذى إنتهت إليه. .

لم يفقد جلال الدين الروم إيمانه بالإنسان، رغم أن كل الظروف كانت تؤدى إلى اليأس والقنوط. .

وقد بدأ شاعرنا يقرض الشعر وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره، ومات فى الثامنة والستين. . أى أنه إنقطع للشعر ثلاثين عاما. . وفى هذه الأعوام الثلاثين، كتب ٧٠ ألف بيت من الشعر، وهذا يعنى أن شاعريته قد تفجرت بفيض غامر لم يتح من قبل لأى شاعر من الشعراء فى أى لغة من اللغات. .

يقول الشاعر فى كتاب المثنوى المعنوى. .

«فى كل لحظة يارب قافلة وراءها قافلة تسير من العدم إلى الوجود».

«ففى الخريف تذهب آلاف الأوراق منهزمة إلى بحار الموت».

«بينما الغراب يرتدى السواد الحزين وينوح على خضرة البستان» . .

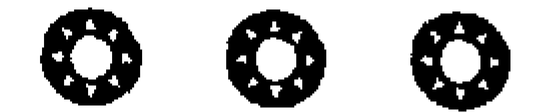
«مرة ثانية يجئ الأمر من سيد الأرض فيقول للعدم، رُدَّى ما أكلت» .

«أيها الموت الاسود. . رد ما أكلت من زروع وحشائش وأعشاب وورق» .

«فيا أخى. . إجعل عقلك معك لحظة واحدة، إن بك فى كل لحظة ربيعا وخريفا» .

«وأنظر بستان قلبك أخضر ريان نضراً.. حافلاً ببراعم الورد والسرو والياسمين» .

بدأت اقرأ المثنوى ووقعت فى حب الرومى كما وقع الرومى فى حب التبريزى. . إن المثنوى كتاب مدهش. . وهو كتاب يحكى فيه الرومى قصصا مثل قصص الأطفال. . ولكن هذا هو السطح وحده. . أما الأعماق فجواهر ولالئ. .



الطيف الأبيض!

الخطوة الأولى: ظهور الطيف الأبيض.

كان الشاعر فى طريقه لإلقاء محاضرة فى موضوع يتصل بالإبداع الفنى عند الشعراء، وكان الضجر يوشك أن يقتله، كان الموضوع الذى دعى للكلام فيه والمناقشة حوله يبدو له هو نفسه غامضاً أشد الغموض، ولم يكن يعرف ماذا سيقول لكل هذا الجمهور الذى إحتشد للاستماع إليه.

كان الشاعر فى طريقه إلى المنصة حين إعترضته سيدة من الحضور.. سألته سؤالا سريعا لايذكره، وأجاب عنه إجابة سريعة لايذكرها أيضا. كل ما يذكره أن الإعجاب والإنبهار بدا فى عين السيدة التى إعترضته ثم إنسحبت وإختفت وسط الجمهور..

فى البداية لم يرها جيداً.. كل ما رآه كان شيئاً أبيض أعرض طريقه، لايعرف الآن هل كانت ترتدى فستاناً أبيض أم بدلة بيضاء.. لم يلحظ.. لم يدقق النظر فى ملابسها ولا دقق النظر فى وجهها.

فى اللحظات الحاسمة من حياته لايرى الأشياء على صورتها الطبيعية، إنما يراها بشكل تأثيرى مثل بقع لونية وأحاسيس موسيقية.

إنه يذكر الآن إحساسه الأول بالضجر حين إستوقفته.. ولكنه.. بعد ثوان من إحساسه بالضيق غامره شعور آخر.. أحس بأنه يوشك على إكتشاف مدهش.. كان يشبه أثريا ظل يحفر سنوات طويلة حتى عثر أخيراً على الباب.. الذى يؤدى للكنز. ووقف الأثرى أمام الباب وهو يرتعش انفعالاً.. ووقف الشاعر أمام الطيف الذى إعترضه وهو يحس بأنه يقترب من الكنز. هدأ من الداخل.. وإنتظر مكافأة لايعرف ماذا تكون، كانت أسئلتها وإجاباته تقع بعيداً عن كيانه الداخلى الذى راح يتأمل بعين الدهشة ميلاد هذا الإحساس بالفرح الداخلى والإنسجام العميق.

وإنتهى الحديث ومضى هو نحو المنصة.. لم يعرف شكل ملامح وجهها، ولا تأمل ملابسها، ولاحدد لها سنا معينة. وساءل نفسه وهو يسير.

ـ ما الذى حدث؟

إسترجع شريط الحدث من ذاكرته بعد ذلك حين وصل إلى بيته.. سقط الصوت من الشريط، ومازالت الملامح تختفى وراء غيم أبيض، ولكن الإحساس الذى بقى فى ذاكرته لما حدث هو التالى:

ـ لقد مر بى اليوم طيف أبيض.. كائن لست أعرف كنهه..

كان البياض هو اللون الغالب على الصورة التى إستبقاها ذهنه من رؤيتها. أحس بأنه أمام طيف بالغ العذوبة والنقاء.

وكان مجرد وجود الطيف كافياً لتوليد فرحة غريبة داخل قلب الشاعر.. لم يعد ضجراً ضيق الصدر.. لم يعد عصبياً.. لم تعد عينه تلتقط صور البؤس والحزن والفقر.

صار ما يفتقر إلى المعنى يحمل فى ذاته معانى جديدة.. حتى الأرصفة المكسورة والشوارع الخربة أصبحت مقبولة ومبررة الوجود بعد وجود هذا الطيف الأبيض.. كان الكمال النهائى للطيف يعادل نقصان الحياة فى جوانبها الأخرى، ملأته الراحة.. وأجهد ذاكرته لإستحضار ملامح وجهها أو تبينها فلم يفلح.. كان الجمال الذى رآه لا علاقة له بالوجه أو الملامح..

وتساءل الشاعر بينه وبين نفسه ـ هل رأى روحها من الداخل؟ وتذكر أنه نسى أن يسألها سؤالا أهم:

ـ من أنت؟

الخطوة الثانية : فى الجزيرة المعزولة

جلس الشاعر بجوار التليفون ومضى يشرب قهوته ويفكر.. خيل إليه أنه نسى شيئاً هاماً، ومضى يجهد ذاكرته لمحاولة إستعادة الخيط الذى يقود إليه.. ولكنه لم يفلح..

كانت أمامه ورقة وقلم فمضى يعبث بالقلم على سطح الورقة.. رسم سمكة فى البداية.. ثم رسم بحراً تعبره سفينة للقراصنة.. ثم أدركه الضجر فتوقف عن رسمه ومضى يكتب الحروف الهجائية بغير ترتيب. كان يرسمها رسماً، كان لها قامة وكتلة ووجودا يشير إلى المعنى.. بعد قليل، ألقى بقلمه وأبعد الأوراق عنه وتذكر فجأة ما كان قد سقط من ذاكرته.

إنه وحيد.. مهجور..

لقد تحطمت سفينة القراصنة التى كان يركبها والتى رسمها على الورق، تحطمت السفينة وسبح هو حتى وصل إلى الشاطىء القريب، وإكتشف بعد وصوله أن الجزيرة صغيرة ومهجورة وليس فيها أحد. لم يكن قبطاناً آمراً على السفينة ليقلق بشأنها، ولكنه كان مجرد بحار صغير يجرب حظه: فى

المغامرة، وها هى المغامرة تنتهى بهذا السجن الذى صُنعت قضبانه من المياه الملحة. .

وفى وحدته الموحشة على الجزيرة. . مضت أفكار الشاعر تحوم حول الطيف وتحاول تجسيده أو إستحضاره. .

ورن جرس التليفون جواره فجأة. . رفع الشاعر سماعة التليفون فوجدها على الخط الآخر. ألقت عليه التحية بود ملحوظ. . سألها: من تكونين؟

قالت: بالأمس قابلتك فى المحاضرة. . وأذكر أننى سألتك سؤالا للمجلة التى أعمل فيها. .

لم يسمع الشاعر بقية كلامها وإنما تمتم يقولِ معترضا: - أين أنت من زمان؟

حمداً لله أنك موجودة. . لقد فقدت الأمل فى العثور عليك وتصورت أنك كنت حلما فى ذاكرتى. .

قالت الفتاة على الخط الآخر. . : هل تحدثنى حضرتك أم جاءك ضيوف.

قال الشاعر: : لا لا. . لا تراعى. . أين أنت الآن. . كم تبعدين عنى؟ تعالى على الفور. . أنا فى إنتظارك.

أغلق التليفون ولم يعد يحس بأنه سجين فى الجزيرة

المعزولة.. وجاش بنفسه إحساس غامر.. ما أغرب الخلائق.. إن زهرة بشرية واحدة قد أحالت صحراء روحه إلى واحة..

ومد يده وأمسك الورقة التي كان يعبث بها.. ومضى يتأمل أشكال الحروف التي رسمها فيها.. وتساءل بينه وبين نفسه: ترى.. ما هو إسمها؟

تحول الشاعر إلى طفل ومضى يلعب لعبة جديدة تعلمها منذ لحظة.. سيعطيها إسما. مضى يضع الحروف جوار بعضها البعض.. مرة من اليمين ومرة من اليسار.. كانت الأسماء جميعا لاتناسبها.. ولاتشير إليها ولا تعبر عنها.

وقال الشاعر لنفسه: إسمها الطيف.. يستحيل أن يكون إسمها شيئا غير حقيقتها كطيف.

الخطوة الثالثة: حوار من كتاب الأطياف

جلست أمامه تشرب فنجان القهوة.. كان واضحاً أنه أول فنجان تحتسيه للقهوة فى حياتها.. لم تكن تعرف كيف تشربه..

سألها: هل تحبين القهوة؟

قالت بود: أنا لا أشربها ولكننى أفعل لأنك طلبتها لى.

قال: كنت أتمنى أن تستجيبى لى فيما هو أكبر قليلا من القهوة..

قالت: لست أفهمك.

قال: أنت مخلوق رائع.. وأنا أحمد الله لأنك موجودة على الأرض.. فى نفس الزمان الذى أعاصره.. وهذا وحده يكفينى..

إبتسمت الفتاة وقالت: حضرتك تبالغ كثيراً.. أننى إنسانة مملة وليس فى وجودى أى شىء مثير..

قال الشاعر: أجمل ما فى اللؤلؤة أنها لا تعرف أنها لؤلؤة..

تحاورا قليلا وحدثها عن إحساسه بها.. إستمعت إليه ثم قالت:

- إن فكرتك عنى تقلقنى.. لقد رسمت لى صورة ليست هى صورتى، وأنت تعاملنى كما لو كنت طيفاً أو سحابةً أو حلماً.. ماذا يحدث عندما تكتشف حقيقتى؟

سألها مندهشا: ما هى حقيقتك؟

قالت: لا أعلم.

قال (وهو يضحك): أنت مخطئة تتصورين نفسك بشراً عادياً كالبشر. ولكننى أعرف وحدى حقيقتك.. أنت أفضل

من تصورك لنفسك، أنا أعرف تواضعك هذا.. إن التواضع من سمات الزهور.. هل سمعت يوما عن زهرة تركت مهمتها فى نشر العطر وتحدثت عن أياديها البيضاء المعطرة على الناس.. إن الزهور لاتتحدث عن نفسها.. أنت كذلك..

قالت (وهى تبتسم بقلق): أنت لا تفهمنى.. لقد رأيتنى بالأمس، وأنت تزعم اليوم أنك تحبنى.. أنك تحب صورة صنعتها لى داخلك، وهى صورة لا علاقة لى بها، وإذا افترضنا أنك جاد وتحبنى حقا، فسوف تتعذب بنفس القدر الذى تحبنى به اليوم.. وربما كرهتنى بنفس القدر.. وهذا ما يقلقنى.. أننى أسعى إلى الصداقة..

فسألها سؤالا مباغتا: هل أنت خائفة؟

قالت: نعم.

سألها: ما الذى يمكن أن تعذبينى به؟

قالت: أنا لا أعرف.. وهذا ما يقلقنى..

قال الشاعر: أنا موافق.

قالت: على أى شىء؟

قال: على العذاب.. إننى أتوسل إليك أن تعذبينى.. إن حياتى جافة راكدة وبلا معنى.. إننى أتوق للعذاب على يديك.. يكون عذابك مشتقا من العذوبة.. أو يكون هو العذوبة الصافية المقطرة..

قالت الفتاة وهى تفتح حقيبتها وتخرج منها أوراقا بيضاء وقلما صغيرا من الرصاص:

لنبدأ العذاب الآن.. سوف أجرى معك حواراً للمجلة التى أعمل لها، لن أسألك غير عشرين سؤالا فقط.. وسوف أعطيك الحق فى الإجابة عما يعجبك، والصمت عما لايعجبك..

قال الشاعر: لقد وقع الذئب فى المصيدة.. هاتى أسئلتك.

الخطوة الرابعة: الراهب والراقصة وقصة الغواية.

كان يحدثها عن قصة تاييس.. وهى قصة راهب ذهب يحاول هداية راقصة وتخليص روحها من الغواية، ولكنه أحبها وإفتتن بها وهام على وجهه.. وإنصاعت له الراقصة وأحبته وأدركتها الهداية ودخلت إلى الدير..

قالت له بعد أن انتهى من القصة: لست أفهمك.

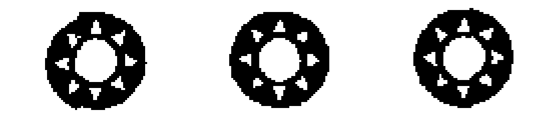
قال: إذا قارنا بين نقاء الروح كنت أنت الراهب، وكنت أنا الراقصة.. لقد تحدث العقاد عن القصة فى كتابه الذى أسماه «فى بيتى» قال العقاد: خرجت الراقصة عابدة من ميدان الصراع وإنتصر الخصمان وهما منهزمان أكبر إنهزام.. راقصة تفتن ناسكاً وناسك يصلح راقصة.. وذلك أقصى مدى الهزيمة والإنتصار، فلما إنجلى الغبار كانت الراقصة راهبة فى

الدير، وكان الراهب مفتوناً يهيم فى وادى الغواية.. وكلاهما صارع ومصروع وناجح خاسر وصامد وهارب من الميدان.

إبتسمت له وهى تقول: لازلت لا أفهمك.. أنت تتكلم كأنك تحاول كتابة قصيدة..

قال لها: أنت تعذبيننى الآن، وهذا شىء طيب.. كونى راهباً يقف أمام ضميرى، وسوف أدخل ديراً واحداً هو قلبك.. سأعيش فيه إلى الأبد.. سأكون توبة الراقصة فكونى إفتتان الراهب.. قالت: لقد تأخر الوقت.. ويجب أن أنصرف.

ومادت الأرض تحت قدمى الشاعر.



الطيف الأبيض : استيقاظ الأمير النائم

الساعة الثالثة والنصف صباحا.

الشاعر يجلس فى غرفة مكتبه فى بيته.. إنتقى شريطاً من موسيقى شوبان، وجلس يستمع إليه.. صادف إختياره كونشرتو البيانو الأول لشوبان.. بكل مافيه من عذوبة تغلو وتشتط مثل عذوبتها..

كانت قد قالت له فى نهاية الحديث: إكتب لى..

قال لها وهو يتململ: تقصدين خطاباً..

قالت وهى تحرك يدها ضاحكة: لا لا.. لاأريد خطابا.. أريدك أن تكتب لى بلغتك التى تجيدها. بالشعر... أنت شاعر فحدثنى بلغتك.

مد يده إلى الأوراق والقلم وكتب لها إعتذاراً يقول:

لا أظن أننى أستطيع أن أكتب لك شيئاً.. لا أظن.. تسألين لماذا؟

الجواب أننى أمتلىء بك إلى الحد الذى يتجاوز اللغة بكل مفرداتها المنطوقة والهامة.. سعيد بإكتشافك ولكننى أحس بأننى مرهق لحد الإعياء.. أرهقنى إكتشافك مثلما يرهق أحد الفقراء أن يعثر على كنز مفاجىء. أرهقنى الفرح النابع من إكتشافك، وأرهقنى الحزنُ من إحتمالات فقدك.. وأرهقنى أنك تجلسين أمامى فإذا أنت حقيقة، وأرهقنى أن تغيبى عنى فأحس بأننى كنت أحلم.

وبين إنقداح التوهج والفرح وإصدامهما بالدهشة والخوف، إندلعت الشرارة وبدأ الحريق داخلى..

شاهدت ماضى كله يحترق أمام عينى ويتحول إلى رماد حريق يشبه نيران الجحيم المطهرة..

طهرنى إفتتانى بك، وطهرنى أننى نظرت فى عينيك لحظة.. بعدها إستولت على هذه الفكرة..

ـ أين كنت تختبئين كل هذا العمر السابق؟

ووسط دهشة الفكرة وعفويتها إستيقظ داخلى الأمير النائم بعد أن ظننت أنه مات.. ولقد أحبك هذا الأمير ولست مسئولا عن حبه.. لقد حذرته ولكنه ألقى سيفه وإمتطى حصانه وإنطلق يلهب ظهره ويعدو. وأدركت من سيف الأمير الملقى على الأرض أنه ذهب مستسلماً لا غازياً، وأيقنت أننا سنضيع..

توقف الشاعر عن كتابته ووضع قلمه وإستسلم لأفكاره.. كان تأمله في ملامحها حين أتيح له أن يتأملها رحلة شاقة.. كان يقف أما عينيها مثلما يقف السائح الغريب أمام بحيرتين ساجيتين صافيتين تموج فيهما الأساطير الغنائية.. وبقدر الراحة النابعة من تعبير العينين كان يحس بالتوتر من هذا الغناء الوثنى المنبعث من كهوف يعيش فيها السحرة بتمائمهم وتعاويذهم.. وكثيراً ما كان يسبح فى البحيرات حتى يرى قاع الروح الهادىء النقى، وكان يعجب كيف ينطوى هذا الجمال البدائى الوحشى البكر على كل هذا الإيمان الداخلى العميق.

دخلت زوجته دون أن يحس بها.. فوجىء بها تقف أمام رأسه...

قالت بصوت نعسان: لم تنم بعد..

قال لها: لا.. أقصد نعم.

عادت تقول له: هل أحضر لك قرصاً منوماً..

قال: لا..

تحركت قليلا ثم عادت تقول له:

ـ ألست جائعا..

قال لها: لا...

إنصرفت زوجته دون تعقيب.. وأشاح بيده كأنه يلغى وجودها وعاد يقفز فى البحيرات الصافية التى يكشف سطحها عن القاع.. فى عينيها كبرياء لايدرى أنه كبرياء.. وتواضع لايعرف صفته، وهدوء عاصف آن له أن يستريح والويل لمن يكدر صفوه.. فى عينيها وداعة طفولية وحزن لايكون إلا حين نشيخ ونهرم ونرتد عائدين إلى الطفولة.

تتكلم عيناها لغة راقية، حتى ليحمل إختلاج الجفن معانى لاتحملها عشرات البروق وهى تلمع فى سماء افريقيا.. الشاطىء الغربى من افريقيا السوداء..

قالت له: أنت ترسم لى صورة أجهل وجودها تماما فى نفسى.. وأخشى أن تتغير صورتى فى ذهنك حين تعرف الحقيقة.. وثب عن مقعده يسألها: ما هى الحقيقة.. هل تعرفين أنت الحقيقة..

قالت: نعم

قال: تحدثى

قالت: أنا إنسان ممل.. أننى أمل من نفسى كثيراً.. فكيف ترانى كما ترى..

قال لها وهو يتوقف عند جملتها الأخيرة: كيف ترانى كما ترى.. هذه هى بداية القصيدة..

إنتهى الأمر وعثر على مفتاح صندوق الكنز وإن كان الصندوق نفسه ضائعا..

صوت أقدام تسير على الأرض، وجراب السيف يجرجر فى يد صاحبه، والأمير النائم يدخل الغرفة.

نهض الشاعر يستقبله..

ـ أين كنت؟

لم يقل الأمير شيئا وألقى جراب السيف من يده وجلس على مقعد أمام الشاعر..

قال الشاعر للأمير: لقد قلقت عليك.. هل أدركك التوفيق.

قال الأمير: كانت مهمة شاقة..

سأل الشاعر: أى مهمة.

قال الأمير: مهمة الصعود إلى القمر.. هل لاحظت جبهتها.. ومفرق الشعر فيها.. من الذى قال أنه كان يقبل ثغراً كالهلال إذا أفل.

قال الشاعر: إمرؤ القيس.

قال الأمير: أين إمرؤ القيس ليرى جبهة تشبه ثغراً كالهلال إذا أفل.. أيقن الشاعر أن الأمير قد وقع فى الهوى ولم يعد قادراً على رؤية الحقيقة الخارجية.

قال له ـ يائسا ـ هل حدثتها عن مشاعرك؟.

قال الأمير محزونا: لم يصدر الإذن بعد..

تساءل الشاعر: أى إذن ينتظره الأمير..

قال الأمير: من الأدب أن يلتزم المحب بدرجته عند محبوبه، تلاشت صورة الأمير وغاب صوته وجلس الشاعر وحده.. سيفسد الأمير كل شىء.. إن براءته وإندفاعه سيفسدان كل شىء.. ماذا يفعل الآن فى الذئب الذى خرج من كهفه فى الصحراء ووقف يتشمم الهواء ويرفع رأسه إلى السماء ويحلم بعشاء طيب.

حاول أن يكتب فلم يستطع.

كان ذهنه مشوشا مضطربا.. وهاجمه نعاس ثقيل وهو فى مكانه وإستسلم للنعاس.. رأى نفسه يسبح فى بحر مضطرب الأمواج، وأدرك أنه يغرق.. وكان أشد ما يدهشه أنه إستسلم لهذا الغرق كما لو كان حلا رائعاً لمشكلاته.

❂ ❂ ❂

السبت

ينهزم الفرسان حين يحبون

حين تصير لهم نقطة ضعف.. إن الفارس الحقيقى
لا يخشى الموت، ولكنه يمكن أن يضعف أمام
موت من يحبه.. أو مرضه.. أو مجرد تكشيرته أو
إبتاسه.. أو رحيله أو حتى إصابته بالبرد.

ولقد وقعت لى هذه التحولات وأنت لا تحسين..

فى المرة الأولى التى رأيتك فيها لم أعرف أنك أنت الطيف.. ثم نظرت لملامح وجهك لأرى الرداء الذى يرتديه الطيف. شاهدت عينيك وفيهما تعبير هادىء لطيف.. وأحسست بالراحة.. إن الطيف قد إختار رداء يناسبه.. بإستثناء قدميه. إن جلد البقرة الذى يغطى قدميه ليس ناعما بالدرجة الكافية.. هذا طيف مهمل.. ستتأثر أصابع قدميه.

لم تكن هذه هى المأساة الوحيدة . . كانت المأساة تكمن أحياناً فى كلمات سريعة مثل قولك

ـ لن أتأخر طويلا هذه المرة .

أو ـ سأستأذن لأنصرف .

أو ـ هل هناك تليفون .

أو ـ إننى أخشى أن أغضبك .

أو ـ إننى أخشى أن أؤلمك . .

كل كلمة من هذه الكلمات كانت تحمل لى كماً من التعاسة الذى لا أعرف كيف أحتمله، ثم تطلبين فنجاناً من القهوة فأعرف أنك باقية حتى يحضر وتحمل لى القهوة كما من السعادة لا أعرف كيف أحتمله. ولقد وقعت فى آبار اليأس قبل أن ألمح من مسافة بعيدة جبال الأمل.

ولقد كان الأمل كله أن تقولى لى شيئاً مثل . . إستمر . . أن جنونك يعجبنى . أو . . توقف . . إن الحوار لايرضينى .

أخيراً أخيراً أخيراً . . تحرك تمثال المرمر .

قال : أكتب إلىَّ . .

وجلس الباشا التركى على الأرض وصفق بيديه وقال إرحمينى ياجارية .

الأحد

قال لها: حدثينى عن نفسك..

قالت: القصة مملة فإستعد بإستحضار كل صبرك ولدت وكبرت وهانذا أمامك. كانت طفولتى غريبة وعادية فى نفس الوقت.. لا أذكر منها كلها سوى ثلاثة أحداث أو أربعة.. أذكر شاطىء بحر كان يسير بجوارى.. وأذكر صحراء.. لا.. بل عاصفة رملية.. كنت طفلة جميلة.. وكانوا يحموننى جيداً.

لم تكن فترات سعادتى تزيد على ليال قليلة.

كانت هناك أشياء أحبها، وأشياء لا أحبها، دون أن أدرى لماذا أحب هذه وأكره تلك..

كبرت أكثر.. إكتشفت أننى متغيرة كالقمر..

صحيح أننى أجمل منه ولكننى مثله فى التحولات والتبدلات.. لا أكد أستقر على شىء وأصل إليه حتى أزهد فيه أو أتحول عنه.. كنت أختار بعد تدقيق بالغ وأكتشف بعد تمام الإختيار كم أسأت الإختيار. ثم قررت ألا أختار..

قال لها: حدثينى عن نفسك.

قالت: أنا متواضعة لايعجبنى شىء.. أبحث عن شىء لا أدريه، وأعيش من أجل هدف لا أعرفه.

سأل: حدثينى عن قصص الحب فى حياتك.

قالت: فى قصة منها خيل إلى أننى أحبه.. وفى قصة أخرى خيل إليه أنه يحبنى. وفى قصة ثالثة حل الإحترام البارد مكان الشيء الذى تخيلنا أنه الحب.

سأل: والنتيجة النهائية.

قالت: لقد سئمت كل شيء.. حتى عملى.. أننى فاشلة تماما ماذا تريد أن تعرف أكثر من ذلك..؟

أغرقته موجة حزن مفاجيء.

أحس بأنه يريد أن يرى الأمير الذى يعيش داخله.. كان يخيل إليه أنه سيراه هذه المرة للمرة الأخيرة.

الخميس

عزيزتى..

قولى لى ماذا أفعل:

إننى أسألك.. اننى أرجوك أن تقولى لىّ ماذا أفعل؟ أنت مسئولة عما حدث لى.. أنت التى بدأت بالتعرض لى.. كنت أمضى فى حياتى قبل أن أراك وأدبر حالى كما يقولون. بعد إعتراضك لى لم أعد أعرف ماذا أفعل؟

لقد مررت بتجربة قاسية وممتعة بعد معرفتك.. كنت أسخن

وأبرد فى الساعة الواحدة عشرات المرات، وكنت أسعد وأشقى فى اليوم الواحد مئات المرات، وخشيت على نفسى من الجنون وأنا أفكر فيك كمخلوق لا ينتمى للبشر ولاينتمى لهذا العالم..

ومازلت أفكر فيك كطيف أو حلم..

أعرف بعقلى أنك إنسان.. وأقول بعقلى أن لكل إنسان أخطاءه وغواياته.. ولكن قلبى يتأملك كشىء أكبر من اللحم والدم.. إننى لم أرك إلا منذ أيام.. ولكننى أحس بأن إعزازى لك يتجاوز إعزازى لكل من عرفت ولذاتى نفسها. وهذا الزلزال الذى وقع فى حياتى يخيفنى.

لقد كنت السيد الآمر فى كل علاقاتى مع البشر قبل ذلك.. حتى فى قمة الضعف الإنسانى والحب كنت أحكم. أما اليوم فإننى أسير تقيدنى حركة أصبع صغير فى يدك..

إننى لا أحبك..

لقد جربت الحب قبل ذلك فلم يكن كذلك.. وجربت العشق فلم يكن ما أشعر به اليوم..

هل هو إفتتان يبلغ حد الجنون؟

هل هو جنون حقيقى أم حب حقيقى؟

أكان ما عرفته قبل ذلك من الحب وهما؟

هل أنت إمرأة حقا أم تجسيد لفكرة المرأة عموما؟

هل جسدك الذى تدثرين به روحك هو جسدك أنت أم وهم صوره لى إنكسار الضوء فى مثلث زجاجى، هل قلت أننى لا أحبك.. بل يحبك داخلى إنسان لم أكن أعرف أنه كائن داخلى..

أن دهشتى لظهور هذا الإنسان داخلى قد تزيد قليلا عن دهشتى لظهور الطيف، لقد إستدعى الطيف هذا الأمير وبينى وبينه هذه الأيام صراع عنيف.. أنه يريدك.. وأنا لا أفهم

إن داخلى صياداً مدرباً، وطفلاً بريئاً، وشيطاناً عتياً، وفلاحاً خبيثاً، ومجنوناً هادىء الأعصاب، وعاشقاً مستبداً، ورجلاً أنانياً، وتلميذاً من تلاميذ أبيقور، وذئباً طيب القلب، وزاهداً فقيراً وقد فوجئت بالزلزال فطمر كل هؤلاء تحت الأنقاض ولم ينج منهم غير الأمير العاشق، ولقد كان هؤلاء جميعا أقل عناء من الأمير العاشق..

كان كل واحد منهم له مطالبه.. وكان إختلاف مطالبهم يجعل عدم تحقيقها سهلا، وكان تقسيم العمل بينهم يجعل حكمهم جميعاً بالعقل عند اللزوم أمراً بالغ السهولة.

لكن هذه المأساة الأخيرة التى تتمثل فى وجود شخص واحد له مطالب محددة أمر لايمكن إحتماله.. وإذن فإننى أعلن الحرب عليك.. وعما قليل تبدأ العمليات العسكرية..

والقصف الجوى.. هذا قرار نهائى.. يجب البحث عن عيوب فيك.. يجب إكتشاف شىء من النقص لتتحطم الصورة.

مجلس القادة العسكريين وقفوا أمام خرائط الحرب وإنتظروا الأمير ليحدثهم عن خطته..

كان الجو ثقيلاً مفعما بنذر الخطر وإحتمالات القرار.

دخل الأمير محمر العينين، إنهار الأمير على مقعد وقال: أيها السادة.. لن نحارب، سوف نستسلم.. إن الهزيمة الحقيقية أن نعلن الحرب عليها..

الأفضل أن نعلن الحب.

۞ ۞ ۞

الطيف الأبيض : رسالة بعد العشاء الأخير

إنكفا الشاعر على مكتبه وقرر أن يكتب إليها رسالة.. وهذه أوراقه بعد أن أنتهى من رسالته.. قيلت الكلمة من قبل عشرات المرات لغيرك قلتها إعترف..

ولكننى لم أقلها بهذه الدهشة.. والصدق.. والعفوية.. والبراءة..

أعترف إننى أحبك..

أعترف أننى كرهتك ثلاثة أيام. . ليس كل الأيام الثلاثة . . إنما لحظات فيها . . نصف.ساعة . . أو ساعة . . ثم عدت إلى قواعدى تحت أظافرك . . أنت روحى . . وجنونى . . وأنقى ما أقف له وأمثله . . لماذا كرهتك . . ولماذا أحببتك . .

بايهما تحبين أن أبدأ . .

بالكراهية . .

قلت لى يوما : أنت تحسب سنى خطأ. . أنك تزيد فيه عاما. .

وخيل إلىَّ أنك تجرين خطا على الفارق بين عمرينا، وقلت لنفسى ـ لا يزهو بشبابه سوى إمرأة مثل بقية النساء. .

وقلت لى يوما : لن أراك إلا بعد شهر. .

حين قلت لك : لا تكونى بهذه الثقة. .

أطل من صوتك نصل سيف بارد حاد. . وقلت : أنت لا تعرفنى.

وقلت لنفسى إنها قاسية ومغرورة. . قاسية لأنها ترمى بكل مشاعرى نحوها تحت قدميها، ومغرورة لأنها تتصور أننى قد إنهرت أمامها ولا أملك من أسباب الكبرياء ما يعيدنى إلى التوازن. . وقررت عقد إجتماع مع نفسى. . وقلت لنفسى

ـ أننى لم أعد أحبها

قالت نفسى : ماذا حدث؟

قلت : أنها ليست طيفا كما توهمت. . أن لها جسداً تأملته. . وهو جسد ناعم. . وليست النعومة قشرة الرقة، أحيانا تنطوى النعومة على.ويل وبيل. . وهكذا كان. .

ثم توقفت فعلا عن حبك. . ولكننى فى نفس اللحظة التى وقع فيها هذا بدأت أكرهك، وأدهشنى أننى أرتدى قناع

الكراهية على وجه الحب وأخدع نفسى، ولكننى قاومت طويلا حبى لك. .

وكلما نجحت كان إحساسى بالفراغ والحزن والخواء يحتل كل موضع تخرجين منه. .

وأبقيت منديل الطيف فى قلبى ذكرى لما كان من أمر الطيف. . وتأكيدا لأنه ما كان طيفاً. .

بعد يومين كانت أوجاع حبى الأخير تعاودنى. . سقطت فى بئر الذكريات مرة أخرى. . وإنقلبت من أقصى الفرح بك إلى ذروة الشقاء بعدك!

كان جرحك الجديد سكينا يتحرك فى جرحى القديم وحاصرتنى الهموم وإستسلمت لموجة الحزن. .

قلت لنفسى : لقد قالت فى اللحظات الأخيرة من المرة الأخيرة فى العشاء الأخير وهى تنوى أن تصلبنى فى اليوم التالى: ـ

ـ أريد أن أرى القصيدة. .

هذا معناه : لا تيأس. .

وقالت بعد هذه الكلمة : سأراك كل شهر، وهذا معناه : عُد إلى اليأس. .

حكيت لصديقة فقالت : أنها لم تهجرك.. أنها خائفة تدافع عن نفسها.. هذا دفاع عن النفس..

لم أفهم.. عن أى شئ تدافع عن نفسها.. أننى أحبها بطاقة هائلة.. جلست أفكر فأحسست أننى ظلمتك..

إن حبا بهذه الطاقة قد لا يحتمل.. وربما إنفجر الطرف الآخر بالهجر مادام لا يحتمل..

كان فى حبى لك شئ مروع.. طاغ.. آسر..

وتذكرت أن بعض ما أحسست به نحوك كان يخيف آخر حب لى.. كانت تقول لى : تزوجنى..

وكنت أقول لها : أننى أمنحك عرش ملكة.. وأنت تبحثين عن وظيفة خادمة..

لم تكن تفهم.. ولا كنت أفهم..

لكن السبب الرئيسى فى الفراق كان ثقل طاقتى من الحب على قدرتها هى على الحب أو إحتماله..

قلت لنفسى أن الطيف أحس بالخوف.. وأدهشه هذا الزلزال المفاجئ.. وأدهشه البركان الذى إستيقظ من نوم القرون وراح يبكى بدموعه النارية وصخوره الذائبة ومعادنه المصهورة.. وغضبت من نفسى لأنها إنساقت إلى إظهار الشعور.. وقلت أكتم فى نفسى.

ومر الوقت وأنت لا تتكلمين ثم فاجأنى صوتك على الخط الآخر.. وفاجأنى التغيير الداخلى لصوتك..

- إن الدنيا ليست مكاناً للارتباطات الدائمة.. هذه كلمتك.. وأنا أصدقك.. إننى أقبل الأرتباط بك بعد أن أموت..

كان صدقك أعظم من صدقى كثيراً.. وكانت رغبتك أعظم من رغبتى.. وأحسست بالحب العميق لك، وأحسست بالمسئولية للمرة الأولى فى حياتى.. أحسست أيضا بوجوب تطهير حياتى..

أعرف ان امامى جهدا شاقا..

إن النار التى تندلع داخلى تجذب كثيراً من الفراشات الملونة، ولكن هذه النار تضئ لك وتكلمك وحدك.. ومن ثم ينبغى أن تكون جديرة بك..

ثم أيقظنى سؤالك المفاجئ - ماذا تريد منى؟

لم أعرف فى البداية ماذا اقول.. أننى أحبك.. وهذا كل ما أشعر به..

أنت ترين أننى لا أجرؤ على الطلب.. أعرف أن الحب لا يكلفك طلبات من أى لون..

ولكنك تسألين: ماذا تريد منى بالتحديد؟ قل لى..؟

وقلت للمرة الأولى : إننى احتاج إليك..

ثم ندمت قبل أن أنتهى من قولها..

ليس هذا شعورى نحوك بالتحديد.. إننى أحس أننى أملكك أكثر مما تملكين نفسك، وأحبك أكثر مما تحبين نفسك، وأراك فى صورة أحد أجزائها جمالك الخارق، ،وبقية الصورة إفتتانى المارق ماذا أريد منك بعد هذا كله.. لم يبق الا جسدك.. بحسناته وسيئاته، وهى أيضا حسنات نسبية.. أحيانا أفكر أننى تزوجتك..

تكون مشكلة حقيقية.. كيف أعاملك وداخلى كل هذا الوجد والإفتتان، إننى لا أتخيل أنك تأكلين أو تشربين.. لم ارك تأكلين وتشربين..

ولست أعرف كيف أتعامل معك كانسان.. أحيانا أحس أننى أريد أن أمطر يديك بالقبلات.. ولكننى أحس أننى لو فعلت فسوف أقبض على الهواء..

ذلك أننى أراك غاية أحلامى فى كل شئ.. ويستحيل أن يكون إلتقاء كل هذه الكمالات سوى حلم..

حتى ثقل دمك موجود بنسبة هى النسبة المثالية، بحيث لو خف دمك أكثر مما هو لصار لا يحتمل، ولو ثقل درجة لصار لا يحتمل، أى إن كل شئ من النسب الكائنة فيك هى النسب المثالية للمرأة.. وهذه النسب سر..

إن فيك وداعة وقسوة، وفيك رحمة ولا مبالاة، وفيك رقة وعصبية، وفيك جمالا وهيبة.. وفيك ما فيك من معان وقيم.. ولكن كل شئ منها قد خلق بنسبة هى النسبة المضبوطة تماما لصنع هذا المزيج النهائى من كأس العذوبة التى لا تنتهى.. حتى بالموت..

الموت.. خيل إلىَّ أنك ذات يوم.. سوف تموتين.. خطرت الفكرة بسرعة على رأسى. برقت مثل سيف يلمع تحت ضوء القمر..

وحزنت كثيرا ولم أعرف ماذا أفعل

أنت إنسان من البشر.. وهذا الصنف من الخلائق يموت ياروحى.. وكل ما على الأرض يموت يا حبى..

أى أن لقاءنا يحمل بذور فراقنا لمجرد أننا بشر.. أننى أحتمل قدرى وأحبك أكثر.. لقد رأيت طيفك فى الدنيا وهذه مكافأة تكفينى تماما.. ولكننى أعترف أننى سأفتقدك بعد أن أموت..

لن يكون لى غير عزاء واحد.. أن عذوبتك لا تموت.. لأنها جزء من روحك.. والروح لا تموت وانما تنتقل من رداء إلى رداء ورداؤها على الأرض هو الجسد.. وأنا لا أنكر أننى أحب أرديتك كلها.. ولكننى أعشق ـ بصورة نادرة المثال ـ روحك..

وهى حسبى من كل عناء..

إتفقنا على الزواج بعد أن نموت ونستيقظ من الموت.. لا أعرف ماذا يكون مهرك فى العالم الآخر..

إن الدنيا لا تساوى جزءاً تطاير من ظفر يدك..

أحيانا أفكر فى خطفك.. لكن .. من أين أحضر قصراً على البحر فيه ألف غرفة مفتوحة وغرفة واحدة مغلقة أخبئك فيها.

قصر لا يراه أحد من الناس إذا نظر قصر لا نراه إلا بعيوننا نحن..

كم أنت نائية وبعيدة.. بعيدة وفى قلبى.. تأملى التناقض.

ooo

المحويات

قريبا يصدر

الجزء الثانى

مـــن

بعض من عرفت

للأستاذ/ أحمد بهجت

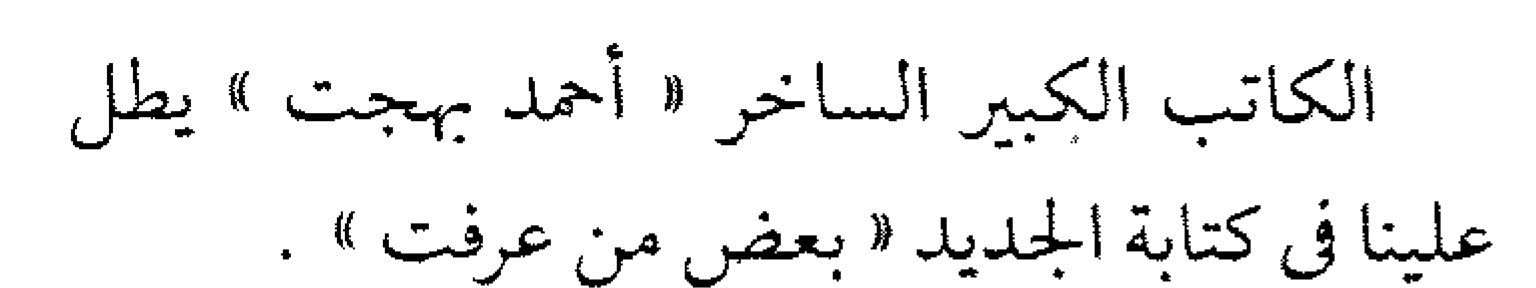
ويضم الشخصيات الآتية :

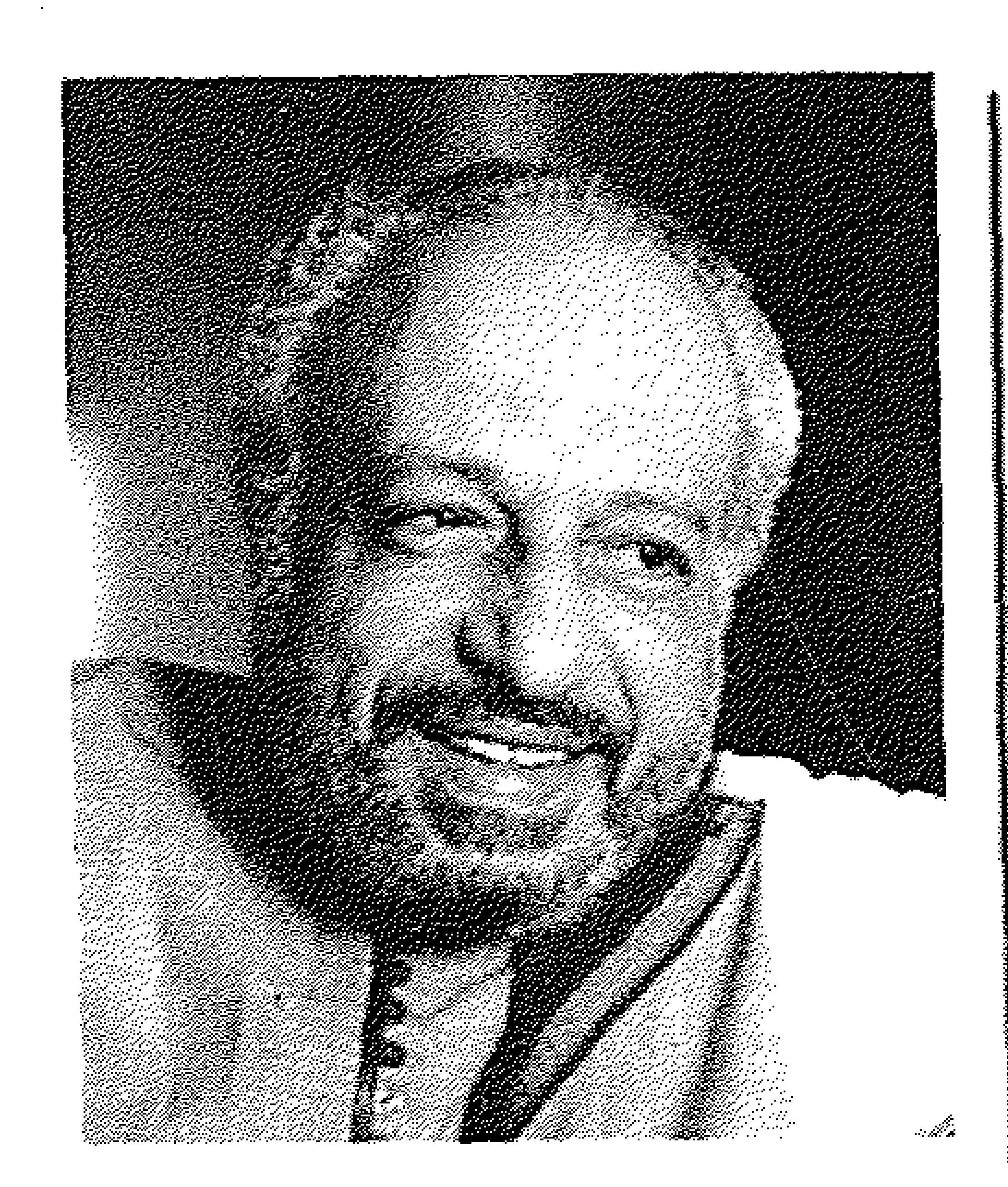
١ ـ توفيق الحكيم
٢ ـ محمد حسنين هيكل
٣ ـ على أمين
٤ ـ مصطفى أمين
٥ ـ أحمد بهاء الدين
٦ ـ محمد على رشدى
٧ ـ رشاد رشدى
٨ ـ أمى
٩ ـ تشيخوف
١٠ ـ انطوان دى سانت اكسورى
١١ ـ النِفَّرى
١٢ ـ أمَ كلثوم

عربية للطباعة والنشر

٧، ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء المهندسين

تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨





الكاتب الكبير الساخر « أحمد بهجت » يطل علينا فى كتابة الجديد « بعض من عرفت » .

وهو يلقى الضوء على زوايا خفية فى بعض من عرف من الشخصيات فى حياته ، وهى شخصيات أثرت فيه بشكل أو بآخر . . وتعلم منها شيئا قد يكون ضخماً وقد يكون هيناً يسيراً . .

وهو لا يقصر إختياره للشخصيات على البشر وحدهم ، أن فى إختياره من ينتمى لعالم الحيوان ، وفيهم من ينتمى لعالم الحلم . . وفيهم من غادر الحياة منذ قرون ، وفيهم المشهور المعروف وفيهم المغمور المطمور . .

ورغم هذا كله يرتبط الكاتب بهم برباط من الحب الذى لا تقف أمامه العوائق والسدود ، أو إختلاف المواقع والأزمنه . .

يتسم أسلوب الكاتب بالحيوية والتدفق ولا يخلو من سخرية تبعث على الإبتسام . .

فى الكتاب دروس من الحياة . . وفيه تأملات وفن وحب .

